شعر فلاسفة المشرق

فى القرنين الخامس والسادس الهجريين

دكتور/ حسن أحمد عبد الحميد عبد السلام

توزيع دار اللواء
ت : ٦٤١٨٠٧ - ٧٠١٠٣٠

رقم الإيداع : ٣٥٦٤ / ١٩٩١
الترقيم الدولى : ٣ - ٠٠ - ٥٢٠٤ - ٩٧٧

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد :

فشعر الفلاسفة إبداع طائفة من الناس عرفوا باهتمامهم بالمسائل العقلية والبحوث العلمية، وقلما تنبه الدارسون للوقوف عند إبداعهم الأدبي مظنة أن مثل هؤلاء ليسوا من أهل الأدب، ولا علاقة لهم بالشعر .

وحينما كنت أعد رسالة العالمية (الدكتوراه) في موضوع «النزعة التأملية في الشعر العربي الحديث في مصر) قرأت عن الصلة بين الشعر والفلسفة. واطلعت على بعض أشعار ابن سينا ، فعزمت على أن أبحث عن بقية شعره، ولم أستبعد أن يكون غيره ممن عملوا بالفلسفة شعراء مثله، وبعد انتهائي من رسالة الدكتوراه سعيت في تحقيق هذا العزم، فوجدت أن عدداً كبيراً من فلاسفة الإسلام كان لهم إسهام طيب في الشعر، فجمعت أشعارهم ونظرت في تراجمهم المبثوثة في مصادر متفرقة، وشجعني على المضي في الطريق الى نهايته أني وجدت بعض المصادر الأدبية تذكر بعض هؤلاء الفلاسفة وتنوه بشعرهم، ومن أهم هذه المصادر معجم الأدباء، ويتيمة الدهر، وغيرهما .

ولما أمعنت النظر في النصوص التي جمعتها وجدت أصحابها ينتمون إلى قرون عديدة وأنهم ظهروا في بيئات ثقافية مختلفة، تشمل جميع البلاد التي حوتها خريطة الدولة العربية آنذاك.

وكان لابد من تحديد إطار زماني وآخر مكاني للدراسة، التزاماً بالمنهج العلمي في البحث، ومحاولة للتوصل إلى نتائج يرضاها العقل ويطئمن لها

القلب، وتجنباً لمشكلات التيه بين القرون والشتات بين المشرق والمغرب، فحددت الدراسة مكاناً بالمشرق العربي، وزماناً بالقرنين الخامس والسادس.

وتجدر الإشارة إلى أن أسلافنا كانوا يطلقون كلمة (الحكماء) مرادفة لكلمة (فلاسفة) وكان يندرج تحت هذه التسمية كل من اشتغل بالعلوم العقلية وبرز فيها، واشتغل بالنظر فى مقولات الأديان وتراث الملل والنحل وما يتعلق بذلك من مباحث، فالقفطى فى (تاريخ حكماء الإسلام) يترجم لأطباء ومهندسين، وابن أبى أصيبعة فى (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) يسير على المنهج نفسه، وترد فى كلا الكتابين كلمة فيلسوف مرادفة لكلمة حكيم فى وصف الباحث فى الإلهيات، والطبيب، والمهندس، على حد سواء، وقد آثرت استخدام لفظ (الفلاسفة) فى عنوان هذا الكتاب لأنه فى مجال الشعر يفهم من لفظ (الحكماء) شعراء الحكمة مثل أبى العتاهية والمتنبى وأبى العلاء وغيرهم، وهذا أمر مختلف عن طريق هذا البحث وهدفه بطبيعة الحال.

وبالله التوفيق.

بسم الله الرحمن الرحيم

شعر فلاسفة المشرق
فى القرنين الخامس والسادس الهجريين

الفصل الأول

ملتقى الشعر والفلسفة

في الثقافة العربية

* * *

الصلة بين الشعر والفلسفة :

يبدو أن ثمت علاقة وثيقة بين الشعر والفلسفة، وإن كانت هذه العلاقة تخفى وتدق أحياناً، لكن يمكن تلمسها فى نقطة الملتقى عندما يكون الموضوع الذى يأسر لب الشاعر هو نفسه الذى يشغل فكر الفيلسوف، مثل قضايا الوجود والمصير والطبيعة والحياة والموت، وغير ذلك من القضايا الإنسانية التى يغوص الفلاسفة فى أعماقها ويحلق الشعراء فى أجوائها .

ومع وجود هذه العلاقة بين الشعر والفلسفة لابد من التسليم بأن طريقة الشاعر وأدواته وغاياته فى تعامله مع هذه القضايا تختلف عن طريقة الفليلسوف وأدواته وغاياته.

فالفيلسوف أداته عقله،يقلب الأفكار على وجوهها، ويبحث شتى احتمالاتها، وطريقته هى سبيل التفكير المنطقى الذى يرتب النتيجة على مقدماتها، والتحليل والتفسير والتعليل، بغية التوصل إلى قوانين تضم الظواهر، وكليات تندرج تحتها الجزئيات .

أما الشاعر فإنه يتعامل مع تلك القضايا بعواطفه وخياله وشيء من فكره، يتأملها ويعايشها، ويصور إحساسه بها .

وعلى أساس هذه العلاقة يمكن أن نفسر تفلسف كثيرمن الشعراء فى شتى العصور والبيئات، وإسهام كبار الفلاسفة بجهود مشكورة فى مجال الأدب .

إن ملكات الفكر والخيال والعاطفة هى هبات السماء للنابغين من الحكماء والشعراء بدرجات متفاوتة، ولايمكن فصل هذه الملكات بعضها عن بعض فصلاً حاسماً، كما لايجوز إغفال أثر بعضها فى معطيات البعض الآخر .

وعلى هذا لايمكن أن نتصور الفيلسوف عقلاً خالصاً دون عاطفة عنده أو خيال، ولا الشاعر عاطفة محضة، دون عقل يساندها أو تفكير .

«فلابد للفيلسوف الحق من نصيب من الخيال والعاطفة، ولكنه أقل من نصيب الشاعر، ولا بد للشاعر الحق من نصيب من الفكر، ولكنه أقل من نصيب الفيلسوف»[1].

ويؤكد الصلة بين الشعر والفلسفة اجتماعهما عند كثير من الأفراد الممتازين الذين عرفوا بالنزعة الفلسفية فى التفكير والسليقة الشعرية فى البيان والتعبير، من أمثال أبى العتاهية والمتنبى وأبى العلاء فى أدبنا القديم، والعقاد وشكرى وجبران فى أدبنا الحديث، فهؤلاء شعراء يمثل الفكر رافداً مهماً من روافد شعرهم.

ومثلهم فى الأدب الغربى كثيرون، منهم شكسبير وجوته وغيرهما، ويسمى أصحاب هذا المسلك (بالشعراء الحكماء) ولهذا نجد من الدارسين من يبحث عن فلسفة أبى العلاء فى شعره ، ومن يكتب عن فلسفة المتنبى، وعن التيار الفكرى فى شعر عبد الرحمن شكرى [2] .

وعلى الرغم من إلمام هؤلاء بالقضايا الفكرية الكبرى، وحديثهم عنها فى شعرهم، واقترابهم من عالم الفلسفة، فهم شعراء نصيبهم من الخيال والعاطفة أكبر من نصيب الفلاسفة،وهم يشتهرون بالشعر لا بالفلسفة، فهم شعراء متفلسفون وليسوا فلاسفة شعراء.

أما الفلاسفة الشعراء ، فهم أولئك الذين اتخذوا من العلوم العقلية

---

(١) العقاد : مطالعات فى الكتب والحياة ص ٢١٢ دار الكتاب العربى بيروت ١٩٦٦ .

(٢) كتب حامد عبد القادر عن فلسفة أبى العلاء من شعره ، وكتب العقاد عن فلسفة المتنبى كما كتب الدكتور محمد السعدى فرهود عن التيار الفكرى فى شعر عبد الرحمن شكرى .

شغلاً وصناعة وحرفة وبضاعة، ورزقوا مع الفكر الخصب خيالاً رحباً، وأوتوا القدرة على التعبير الجميل، فضربوا بسهم فى مجال الشعر.

فهؤلاء فلاسفة نصيبهم من العقل والفكر كبير، يعرفون بالفلسفة، وبها يشتهرون، وإن كان لهم حظ من الموهبة الشعرية .

ومن هؤلاء الفلاسفة الشعراء الفارابى وابن سينا وابن رشد وغيرهم من فلاسفة دولة الإسلام.

ومع تحقق الصلة بين الشعر والفلسفة، والتقائهما عند الشعراء الحكماء والفلاسفة الشعراء، فإنه من غير المستساغ أن يندمج كلاهما فى الآخر ويفنى فيه، «لأنه ليس مما يسر أن يفنى الشعر فى الفلسفة، فيستحيل صوراً ذهنية قليلة الجدوى، ولا أن تندمج الفلسفة فى الشعر، فيخف وقارها وتحور خيالات لاطائل تحتها، ويحسن بكليهما أن يعمل فى دائرته ويسير فى طريقه، وإن كان هناك مستوى أسمى يلتقيان فى أعاليه ويتصافحان، ويطلع كل منهما الآخر على نفيس مدخراته وغالى كنوزه»[1] .

أثر الثقافات الوافدة فى الشعر العباسى :

كان من معجزات الإسلام أنه أظل دولاً مترامية الأطراف، وأجناساً مختلفة، وأمما متباينة، وثقافات متعددة، فجمع الشتات وأذاب الفروق، ووحد الأمم والثقافات فى نسيج قوى محكم أثمر حضارة شامخة وإنجازات باهرة،كانت وما تزال لبنات مهمة فى صرح الحضارة الإنسانية .

ومن مفاخر لغة العرب أنها استوعبت حضارة الفرس، وفلسفة اليونان، و تراث المصريين، وطب الهند، وألواناً أخرى من العلوم والثقافات.

---

(١) على أدهم: بين الفلسفة والأدب ص ٩ دار المعارف .

لقد فتح الإسلام بلاد الدنيا، فأظلها برحمته، وحكمها بعدالته، واحتضن علومها وحضاراتها، وأصبحت العربية هى الوعاء الذى حفظها من الضياع والاندثار، عن طريق الترجمة التى شجعها الحكام المسلمون، وأنفقوا عليها أموالاً طائلة .

ولقد ظل الشعر فن العربية الأول، مع ما طرأ عليه من تجدد وتطور فى الموضوعات والأفكار والصور والأساليب فى العصر العباسى، ونبغ فيه كثير من المستعربين الذين يرجعون إلى أصول غير عربية ، وظهرت فى الشعر آثار الثقافات المنقولة والعلوم المترجمة، التى تمثلها الشعراء ، سواء منها الهندى والفارسى واليونانى .

لقد نظر كثير من الشعراء فى هذه العلوم، وغذوا أشعارهم بأفكارمنها، كما لاحظ ابن قتيبة على أبى نواس إذ يقول:

«وكان أبو نواس متفننا فى العلم، قد ضرب فى كل نوع منه بنصيب، ونظر مع ذلك فى علم النجوم، يدلك على ذلك قوله :

ألم تر الشمس حلت الحملا وقام وزن الزمان فاعتدلا

وغنت الطير بعد عجمتها واستوفت الخمر حولها كملا[1]

وذكر ابن قتيبة كلاماً يستدل به على علم أبى نواس بالنجوم ، ثم قال: «ويدل على علمه بالنجوم أيضاً قوله فى قصيدة أولها :

أعطتك ريحانها العقار وحان من ليلك انسفار

ثم وصف الخمر فقال :

تخيرت والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار

---

(١) الشعر والشعراء ص ٥٣٩ دار الكتب العلمية بيروت ط٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

يريد أن الخمر تخيرت حين خلق الله الفلك، وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة فى برج، ثم يسيرها من هناك، وأنها لاتزال جارية حتى تجتمع فى ذلك البرج الذى ابتدأها فيه، وإذا عادت إليه قامت القيامة وبطل العالم»[1] .

ويورد ابن قتيبة كذلك قول أبى نواس :

قل لزهير إذا حدا وشدا	أقلل أو أكثر فانت مهذار
سخنت من شدة البرودة حتى	صرت عندى كانك النار
لايعجب السامعون من صفتى	كذلك الثلج بارد حار

ثم يقول:

«وهذا الشعر يدل على نظره فى علم الطبائع لأن الهند تزعم أن الشيء إذا أفرط فى البرد عاد حاراً مؤذياً »[2] .

كما ألم أبو نواس ببعض أفكار المتفلسفة والمتكلمين فى شعره، من ذلك فكرة التولد، وهى الفعل الذى ينشأ عن فعل آخر دون قصد[3] وذلك فى قوله:

وذات خد مورد	فتانة المتجرد
تأمل العين منها	محاسناً لاتنفد
فبعضها قد تناهى	وبعضها يتولد

ومنه أيضاً فكرة الجوهر الفرد، والجزء الذى لايتجزأ ، كما فى قوله :

(١) السابق نفسه .

(٢) الشعر والشعراء ص ٥٤٣.

(٣) العصر العباسى الأول د. شوقى ضيف ص ٥٤ - دار المعارف .

ياعاقـــد القلب عــنى ـــــ هــــــلا تــذكرت حــلا

تركــــت مـــنى قــليلاً ـــــ من القـــــليل أقـــلا

يــــكاد لايــــتــجزأ ـــــ أقل فى اللفظ من لا [1]

ولاحظ النقاد تأثر أبى العتاهية بمراثى فلاسفة اليونان التى قالوها فى رثاء الإسكندر المقدونى، وقد ترجمت إلى العربية ، وذلك فى قول أبى العتاهية يرثى صديقه على بن ثابت :

بكــيتك ياعلى بدمع عينى ـــــ فما أغنى البكاء عليك شــيا

كفى حزناً بدفنك ثــم إنى ـــــ نفضت تراب قبرك عــن يديا

وكانت فى حياتك لى عظات ـــــ وأنت اليوم أوعظ منك حيا [2]

ولقد ظهر أثر الثقافة الفارسية فى الشعر - خاصة - بعد أن اطلع الشعراء على كتابى الأدب الكبير والأدب الصغير لابن المقفع ، فنقلوا ما فيهما من تجارب الفرس وحكمهم ووصاياهم، كما تمثل بعضهم الأمثال الفارسية، وأكثرمنها صالح بن عبد القدوس.

وانتقلت الثقافة اليونانية بترجمة الكتب اليونانية التى كانت مترجمة الى الهندية من الهندية إلى العربية، وبالترجمة المباشرة من اليونانية الى العربية، فلقد ترجمت كتب أرسطو وأفلاطون وغيرهما فى المنطق والفلسفة، وتأثرت بذلك الثقافة العربية فى شتى فروعها ومناحيها .

ولم يكن الأدب - عامة - والشعر - خاصة - بمعزل عن هذهالمؤثرات ، فظهرت فيه أثار الفلسفة اليونانية، والتصوف الهندى، والعلوم المنقولة

---

(١) راجع البيان والتبيين للجاحظ جـ١ ص ١٤١ تحقيق هارون - الخانجي بالقاهرة .

(٢) العصر العباسى الأول ص ١٥١ .

والأفكار الوافدة من كل جنس.

وانطبع الشعر العباسى بطوابع فكرية واضحة، لانجد ما يشبهها فى الأعصر السابقة، فقد تميز هذا الشعر بالتعمق فى المعانى وكثير من التفصيل والتقسيم والتعليل، على نحو ما هو معروف عند المتنبى وأبى تمام والمعرى وأبى العتاهية وابن عبد القدوس وغيرهم.

ولم يخل من هذه الطوابع غرض من أغراض الشعر، حتى شعر الزهد الذى اشتهر به أبو العتاهية لاحظ عليه الدراسون أنه كان ذا صبغة علمية دينيةفلسفية[1].

هضم العرب للفلسفة وظهور فلاسفة منهم :

بعد الفتنة الكبرى بمقتل عثمان رضي الله عنه ، نشأت فرق عديدة ذات اتجاهات فكرية وعقدية مختلفة، وكان من زعماء بعض هذه الفرق من استتر بالإسلام ، وبث أفكاراً مناقضة له فى أتباعه ومريديه، وأراد أن يجعل من هذه الأفكار معاول هدم للدين الذى لم يخلص له، بغية إحياء عقائد قديمة أبطلها الإسلام وقضى على نفوذها.

وقد واجه أهل السنة أفكار هؤلاء المارقين، ودللوا على بطلانها بآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ . وأبلى المعتزلة بلاء حسناً فى حجاج أصحاب هذه الأفكار وجدالهم، ودافعوا عن عقيدة الإيمان الإسلامية وأسسها ، وعن فكرة التوحيد، وحقائق النبوة، والثواب والعقاب ، وغيرها من أركان العقيدة .

---

(١) راجع أمراء الشعر العربي فى العصر العباسى أنيس المقدسى ص ١٥٠ دار العلم للملايين - بيروت ط ١٤ ، ١٩٨١م.

وواجهوا فرقاً شتى كالمرجئة، والمجبرة، والرافضة، واليهود، والنصارى، والدهريين، والمانويين، وغيرهم. وكان كثير من أفكار هذه الفرق يرتد الى أصول عقدية قديمة عند الفرس والهنود وغيرهم، أو يرجع إلى مقولات فلسفية عند قدماء اليونان.

وكان لابد للمعتزلة – ليواجهوا أمثال هؤلاء بالحجج والبراهين العقلية، من أن يتسلحوا بالمنطق، وأن يطلعوا على مقولات الفلاسفة وبحوثهم، وأن يعرفوا تاريخ الملل والنحل، وقد أدى ذلك إلى طبع تفكيرهم بطابع عقلى مميز.

وقد أداهم النظر فى الأصول السالفة الى مباحث كبيرة فى العلاقة بين الله والإنسان، وبين الله والطبيعة وما فيها من قوى فعالة، مما جعلهم يتوسعون إلى أقصى حد فى الأبحاث الطبيعية والرياضية والفلسفية .

وبفضل تشجيع الحكام العباسيين للترجمة، وإغداقهم على المترجمين انتقل إلى لغة العرب كل ما كانت عقول الأمم الأخرى أنتجته فى شتى ألوان المعارف والعلوم، وأفضل ما كتبوه فى الطب والكيمياء والجغرافيا والفلك والهندسة والرياضيات وغيرها من بحوث فى النفس والإلهيات .

ولم يقف دور العرب عند النقل والتمثل، فقد جاوزوا ذلك إلى الابتكار، فأضافوا إلى تلك المعارف، وزادوا عليها، وعدلوا فى نظرياتها وأسسها، وظهر فى الدولة العربية الإسلامية نوابغ يزاحمون فلاسفة اليونان وأطباء الهند وحكماء الإغريق وعلماء الفرس، وتعد مؤلفاتهم مراجع قيمة إلى يومنا هذا[١] .

من هؤلاء الكندى الفيلسوف،وأبو بكر الرازى الطبيب، ومحمدبن موسى الخوارزمى الرياضى، مبتكر علم الجبر، وجابر بن حيان الكيميائى العظيم، والفارابى، وابن سينا، وغيرهم[٢] .

---

(١) انظر ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين ج١ دار الكتاب العربى – بيروت.

(٢) راجع العصر العباسى الثانى د. شوقى ضيف ص ١٢٩ وما بعدها دار المعارف .

والحق أن نقل الثقافات القديمة والفلسفة والملل والنحل وإحياء تراث الأمم فى الثقافة العربية بلغتها لم يكن خيراً محضاً، بل شابه بعض الشر، إذ نقل مع المفيد بعض الضار، ووفد مع الحق كثير من الباطل - خاصة فيما يتصل بالأديان والعقائد، فقد ظهرت أفكار بعيدة عن روح الإسلام وأصوله جاءت من فلسفة عقلية، أو نحلة وثنية من ميراث الأمم التى أظلها الإسلام.

ومن هذه الأفكار القول بوحدة الوجود، وحلول الإله فى البشر واتحاد العابد بالمعبود، وتناسخ الأرواح، وإنكار النبوات، وغير ذلك مماترفضه عقيدة الإسلام.

هذه الأفكار وغيرها شاعت عند أفراد وجماعات من المنتسبين إلى الفلسفة، أو المنتمين إلى التصوف، أو الجامعين بينهما ممن تأثروا بما وجدوه فى التراث الدينى والفلسفى للفرس والهند واليونان والمصريين وغيرهم.

فجماعة إخوان الصفا - مثلاً - يقتبسون فى مذهبهم من اليهودية، والنصرانية ، ووثنيي اليونان، والفرس، والهند، وما يرون أنه معقول، وكان من أنبيائهم نوح، وإبراهيم، وسقراط، وأفلاطون، وزارادشت، وعيسى، ومحمد، وعلى ... إلخ، وهم يعتقدون أن الفلسفة أرقى من الدين [1] .

كما اعتقدوا أن النجوم تؤثر فى العالم الأرضى بالسعد وبالنحس ، وأن طول الأعمار وقصرها مرتبط بهذا التأثير [2] .

والفارابى ادعى فى النبوة أمراً جديداً، إذ ربط النبوة بالأحلام، وقبله

---

(١) انظر ظهر الإسلام أحمد أمين جـ٢ ص ٥١ و ص ١٥٥ .

(٢) انظر ظهر الإسلام جـ٢ ص ١٥٧ .

قال بنفيها ابن الراوندى وأبو بكر الرازى

أما القول بتناسخ الأرواح، وانتقال الروح من بدن إلى بدن، أو انتقالها من الإنسان إلى الحيوان أو النبات فقد كان من عقائد القرامطة وأشباههم، وأصل هذه العقيدة راجع إلى البوذية والمانوية، ويترتب علي هذا القول إنكار الآخرة والجنة والنار.

ويرجع القول بالحلول والاتحاد إلى التأثر بالنصرانية وعقيدة أهلها الباطلة فى المسيح – عليه السلام - وقد ردد هذا القول غلاة المتصوفة[1].

وقد نتج عن شيوع هذه الأفكار أن اشتد الخلاف واتسعت هوته بين الفقهاء وعلماء الشريعة من جهة والفلاسفة وغلاة التصوف من جهة أخرى، واتهم بعض من الفلاسفة والمتصوفين بالزندقة، ومنهم من حوكم وقتل. ولقد تمثلت العلاقة بين الدين والفلسفة فى أربعة اتجاهات هى :

أ– اتجاه يعرض نظريات الفلسفة على الدين، فما وافق منها الدين قبل، وما لم يوافقه رد، وكان ذلك شأن علماء الكلام.

ب– اتجاه أراد أصحابه التوفيق بين الدين والفلسفة، فأولوا نصوص الدين لتوافق الفلسفة كالكندى والفارابى وابن سينا .

جـ– اتجاه فصل بين الدين والفلسفة، فلكل منهجه وطريقه .

د– اتجاه يحكم العقل فى الدين – كما فعل إخوان الصفا – .

ولقد كانت المباحث التى يثور حولها الجدل والنقاش تتعلق بالنفس، والسعادة، والخير ، والشر، والجبر والاختيار ، وما إلى ذلك، وكان كل فريق

---

(١) ضحى الإسلام جـ ١ ص ٢٣٨ وما بعدها .

يحاول الانتصار لرأيه بالأدلة التى يؤمن بها .

كما بحثوا فى الأخلاق والسياسة، ووسائل تهذيب النفس والرقى بها[1]، ومن هنا اختلطت الفلسفة بالتصوف وبلغ النشاط العلمى والثقافى والفكرى ذروته فى القرن الرابع الذى شهد إضافات كثيرة ابتكرها علماء العرب فى الطب والرياضيات والفلك والكيمياء وغيرها .

وإذا كان الوجه العلمى لهذا العصر مشرقاً ناضراً إلى درجة تبعث الانشراح فى النفس، والإعجاب والفخر بالأسلاف ، فإن الوجه السياسى له لم يكن بهذه النضارة وذلك الإشراق فقد انقسمت الدولة العربية إلى دويلات وإمارات استقلت بكل إمارة أسرة تحكمها، وتنافست هذه الإمارات تنافساً محموداً فى تشجيع العلم والثقافة واستقطاب كبار العلماء، كما تنافست في التوسع وبسط النفوذ، والخروج على سلطان الخلافة العباسية التى زاد ضعفها بزيادة تدخل الأتراك فى شئونها حتى لم يعد للخليفة العباسى فى نهاية الأمر من سلطان الخلافة أو مظهرها غير الاسم.

ومع هذا فقد كانت الأرض الإسلامية كلها وطناً لكل المسلمين ينتقل طالب العلم من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها دون حرج أو تضييق عليه من أحد.

ولئن كانت ثمار النشاط الثقافى والعلمى قد ظهرت فى القرنين الخامس والسادس، فإن نتائج الضعف السياسى قد ظهرت وأدت إلى سقوط بغداد فى منتصف القرن السابع فى أيدى التتار.

ولقد كان من آثار النهضة العلمية والثقافية والفكرية الكبرى التى رعتها

---

(١) للمزيد عن موضوع الفلسفة عند المسلمين راجع مقدمة فى الفلسفة الإسلامية للدكتور / عمر محمد التومى الشيبانى الدار العربية للكتاب - ليبيا.

الدولة العباسية منذ نشأتها أن لمعت فى سماء الفلسفة والأدب أسماء طائفة من الفلاسفة الشعراء الذين جمعوا بين النزعة الفلسفية والموهبة الشعرية .

وفى تعرفنا على هذه الطائفة سنجد منهم من نبغ فى الطب ومن نبغ فى الكيمياء، ومن نبغ فى الفلك، وكان مع ذلك شاعراً .

ولم يكن العرب فى ذلك العصر يفصلون بين الفلسفة النظرية والفلسفة العملية التطبيقية، فكان الطبيب والمنجم يلمان بكثير من المسائل الفلسفية، وتكاد تعد الفلسفة عندهم وحدة فروعها : الطب، والإلهيات، والحساب، والمنطق ، والموسيقى، والهندسة ، والهيئة، فالطبيب والمهندس والفلكى كان يلم بكل هذه العلوم، ثم يتبحر فى علمه الذى تخصص فيه، وكان يطلق على كل واحد من هؤلاء اسم فيلسوف .

وكانت رغبة الأطباء والمنجمين وغيرهم فى إتقان فنونهم تحملهم على إتقان اللغات الأجنبية، وخاصة اليونانية، فإذا حذقوها أقبلوا على الكتب المؤلفة فيها من جميع فروع الفلسفة، وقد نقل إلينا ابن النديم ثبتاً بأسماء الكتب التى كان يدرسها المتطببون، فإذا فيها طب وتشريح ، وما إلى ذلك، ثم فيها منطق، وأخلاق، وبحث فيما وراء المادة، وكان مما يقرءون كتاب موضوعه : «أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفاً»(١) .

ولا تعنى دراستنا لشعر الفلاسفة الذين ظهروا فى القرنين الخامس والسادس أن الفلاسفة الذين وجدوا قبل هذا التاريخ أو بعده كانوا - بالضرورة - مجردين من الموهبة الشعرية ، فلقد روى عن الكندى شعر منه قوله(٢) :

---

(١) انظر ضحى الإسلام جـ١ ص ٢٧٣ ، وراجع مقدمة ابن خلدون ص ٤٠١ المطبعة الأزهرية.

(٢) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة جـ١ ص ٢٠٩ المطبعة الوهبية بمصر ١٢٩٩ هـ ١٨٨٢م.

أناف الذنابى على الأرؤس — فغمض جفونك أونكس

وضائل سوادك واقبض يديك — وفى قعر بيتك فاستجلس

وعند مليكك فابغ العلو — وبالوحدة اليوم فاستأنس

فإن الغنى فى قلوب الرجال — وإن التعزز بالأنفس

كما روى عن أبى بكر الرازى أنه قال :

لعمرى ما أدرى وقد آذن البلا — بعاجل ترحالى إلى أين ترحالى

وأين محل الروح بعد خروجه — من الهيكل المنحل والجسد البالى[٣]

ولم يكن الكندى أو الرازى من فلاسفة القرنين الخامس والسادس، غاية الأمر أن الفلاسفة الشعراء فى هذين القرنين كانوا كثيرين، ولم تخل منهم بيئة من البيئات الثقافية المزدهرة فى ذلك العصر .

* * *

---

(١) ظهر الإسلام ج٢ ص ١٨١ .

الفصل الثانى

بيئات الثقافة فى المشرق العربى

* * *

انساح المجاهدون المسلمون من صحابة الرسول ﷺ والتابعين لهم فى الأرض، يهدون العباد، ويفتحون البلاد، وينشرون نور الله فى أرجاء الدنيا.

والدعوة إلى الإسلام تقترن بالدعوة إلى التعلم واحترام العلم وتقرر أن طلب العلم فريضة، وأن السعى من أجله عبادة. وترتب على ذلك أن الجيوش الإسلامية حافظت على التراث العلمى والثقافى للبلاد التى فتحوها، فلم يحرق المسلمون مكتبة، ولم يقتلوا عالماً، ولم يهدموا دار علم أو دار عبادة، بل أضاف المسلمون دوراً للعلم أنشأوها ،ومكتبات أقاموها : وشجع أمراؤهم طلب العلم كما أمرهم دينهم.

وحدث التزاوج واللقاح بين الثقافة الإسلامية والعربية التى يعرفها الفاتحون، والثقافات الموروثة لدى أصحاب البلاد التى أظلها الإسلام، وتعددت البيئات الثقافية فى الدولة الإسلامية الممتدة الأطراف، وكان أهم هذه البيئات : العراق، وبلاد إيران، والشام، ومصر – بالإضافة إلى الجزيرة العربية موطن العرب الأول الذى من أرضه شع نور الإسلام، وقد كانت كل هذه البيئات ذات نشاط واسع ومؤثر فى إثراء الثقافة وتأصيل العلم ونشر المعرفة فى ربوع الدولة الإسلامية فى المشرق العربى على مدى قرون متعددة، وكان التواصل بين هذه البيئات جميعاً قائماً فالعلماء يتجولون بينها، وقد يولد أحدهم فى بغداد، ثم يرحل إلى دمشق فيتخذها وطناً، أو يولد فى دمشق، ويسافر إلى القاهرة ليقيم بها، أو يتتلمذ على أحد علمائها، وهكذا الأمر بالنسبة إلى بلاد إيران، وقل أن تجد عالماً عاش ومات فى الموطن الذى ولد فيه من غير أن يبرحه.

وكانت الكتب مثل العلماء فى هذا الشأن فالمصريون يسمعون بالكتب المهمة التى يؤلفها الشاميون، والعراقيون والإيرانيون ، بل كان هذا

التواصل العلمى قائماً بين علماء المشرق وأدبائه وشعرائه، ونظرائهم فى دولة الأندلس بالمغرب، ولا غرابة فى ذلك لأن العلم رحم بين أهله .

وسنحاول الآن التعرف على النشاط الثقافى والعلمى فى كل بيئة من بيئات الثقافة التى ازدهرت فى المشرق العربى .

١ - الجزيرة العربية :

تشرف أرض الجزيرة بأن نور الإسلام أشرق منها على الدنيا، وأن أهلها هم أول من حمل عبء الدعوة إليه بعلم وفقه وبصيرة، فدعوا غيرهم إلى الإسلام، وعلموا الناس القرآن .

والجزيرة هى موطن العرب الخلص الذين لم يكونوا - قبل الإسلام - من أصحاب الفلسفة أو الحضارات والنظم المعقدة، فكل ما كان يعرفه الجاهليون. هو حفظ الأشعار ورواية الأخبار، ومعرفة الأنساب مع أشتات من المعارف التى أحوجتهم إليها ظروف بيئتهم وحياتهم.

ولقد تركزت الحركة العلمية فى بيئة الجزيرة - بعد ظهور الإسلام ، وإبان العصرين الأموى والعباسى - على علوم الدين الإسلامى، وفنون اللغة العربية، وأدى الحرم المكى، والحرم النبوى دورا هاما فى هذه المجالات، فقد تحول كل منهما إلى جامعة كبرى تدرس فيها علوم الشريعة الإسلامية، من تفسير للقرآن الكريم، ودراسة لوجوه إعجازه، ودراسة للحديث الشريف، وبحث فى مسائل الفقه إلى جانب علوم اللغة العربية من نحو وبلاغة وما يتصل بالدرس اللغوى من رواية الشعر والنظر فى نصوص الأدب وغير ذلك.

وشاركت الى جانب الحجاز ونجد والمدينة حواضر اليمن والبحرين وحضر موت فى احتضان علوم الشريعة واللغة والتراث العربى ودراستها وتقديمها لطلاب العلم ممن أراد التعرف على الإسلام.

لكن العلوم العقلية وهي علوم الفلسفة التى كانوا يسمونها علوم الأوائل أو العلوم الحكمية من طب وكيمياء وهندسة وفلك وبحث فيما وراء المادة فى مسائل تتعلق بالألوهية، وطبيعة النفس الإنسانية، وغير ذلك من مباحث الفلسفة .

أقول : هذه العلوم لم يكن لها مكان فى الحركة العلمية التى نشطت فى الجزيرة العربية، وذلك - فيما يبدو لأسباب منها : أن العرب قبل الإسلام لم يكونوا ذوى اهتمام كبير بهذه العلوم ، فلم يكن لهم ماضٍ يبنون عليه فيها، وأنهم بعد أن شرفهم الله بالإسلام اكتفوا به عن النظر فى البحوث الفلسفية القديمة التى تدور حول الألوهية وقضايا ما وراء الطبيعة، وانصرفت جهودهم لخدمة الإسلام فيما يتعلق به مباشرة من نصوص وأحكام وعلوم تدور حول النصوص والأحكام .

ولا يقدح فى هذا الأمر أن الكندى أول فيلسوف عربى كان أصله من الجزيرة العربية لأن نشأته وثقافته كانتا ببغداد وقد عرفت بيئة العراق الفلسفة مبكراً، ونشط فيها البحث الفلسفى كما سنوضح فيما يأتى :

٢- العـــراق :

كانت العراق أكبر بيئة ثقافية فى العصر العباسى، فقد اتخذ العباسيون من بغداد عاصمة لدولتهم، وقدم إليها العلماء من كل مكان.

ولقد اهتمت بيئة العراق بعلوم الشريعة الإسلامية واللغة العربية، لكنها لم تقتصر عليها، بل أضافت إلى ذلك اهتماماً بالغاً بعلوم الأوائل (الفلسفة والطب والكيمياء والرياضيات والهندسة والفلك وغيرها) . وكما كثر فى العراق علماء التفسير والحديث، والنحو والبلاغة، والشعراء والخطباء، كثر فيها كذلك علماء الطب والكيمياء والهندسة والفلك، ودار فى مجالس العلم بها

نشاط علمى كبير حول كتب الفلسفة ومقالاتها ونشطت الترجمة لتنقل كل ما خلفه اليونان والفرس من الكتب الفلسفية ، وتعددت حواضر الثقافة لتشمل مدناً كثيرة فى العراق، واهتمت جميعها بالفلسفة، حتى إن الدكتور شوقى ضيف يقول:

«يخيل إلى الإنسان أنه لم يبق فى العراق وإيران مدينة إلا اهتمت بالفلسفة وعلوم الأوائل ...»(١) .

وكان من أهم هذه الحواضر إلى جانب بغداد الموصل ، وإربل، وسنجار،والبصرة،والكوفة(٢) .

وقد انتشرت فى هذه المدن المدارس والمكتبات، وحفلت المكتبات بالكتب المترجمة والمؤلفة فى فنون العلم المختلفة، كما تعددت حلقات العلم والبحث الفلسفى، وكان من أهمها حلقة أبى سليمان المنطقى السجستانى الذى رحل إلى بغداد ليتتلمذ على علمائها الكبار، وقد كانت داره منتدى كبيراً يجتمع فيه العلماء وطلاب العلم، وتثار فيه مشكلات الفلسفة الإلهية والطبيعية، ومسائل الرياضة والفلك، وموضوعات النفس والسياسة والأخلاق، وبحوث الطب والتنجيم ، وإلى جانب هذه الحلقة كانت هناك حلقات أخرى تعقد فى بيوت العلماء والوزراء وفى المساجد والمدارس.

ولقد بلغت الحركة العلمية أوج نشاطها فى بيئة العراق وقدمت للحضارة الإنسانية عدداً كبيراً من الفلاسفة (الأطباء والكيميائيين وعلماء الهيئة والرياضيين والباحثين فى فروع الفلسفة الإلهية والطبيعية والأخلاقية) .

ومن هؤلاء : الحسن ابن الهثيم، المتوفى سنة ٤٣٢هـ، وله ثلاثة وأربعون

---

(١) عصر الدول والإمارات – الجزيرة العربية – العراق – إيران ص ٢٨٣.

(٢) راجع الأدب فى العصر الأيوبى د/ محمد زغلول سلام ص ١٠٧ دار المعارف ١٩٨٣.

كتاباً فى الفلسفة والعلم الطبيعى، وخمسة وعشرون كتاباً فى الرياضيات والهندسة، وهو صاحب النظريات الدقيقة فى علم الضوء والبصريات، ومنهم كذلك الطبيب ابن بطلان، وعالم الجغرافيا الإصطخرى، وغيرهم(١) .

وإذا كانت العلوم الفلسفية قد ازدهرت فى العراق ازدهاراً كبيراً، فإن علوم الشريعة واللغة العربيه شهدت نهضة كبيرة هى الأخرى، فقد كثر فى العراق العلماء المبرزون أصحاب المصنفات الهامة فى التفسير والقراءات والحديث والفقه والبلاغة والنحو والتاريخ.

وقد أفاد الأدب والشعر من هذه النهضة العلمية الكبرى وتأثر بالأفكار التى ولدت فيها، وكان ظهور شعراء فى بيئة الفلاسفة أثراً من آثار هذه النهضة.

٣- إيران :

أدى التنافس فى تشجيع الثقافة والعلم والأدب بين الحكومات المتعاصرة والمتعاقبة على أقاليم إيران إلى ازدهار الثقافة والعلم والأدب خاصة فى القرنين الرابع والخامس.

فقد عمل كل أمير على أن يحشد فى بلاطه أشهر العلماء والشعراء فعضد الدولة البويهى - مثلاً - كان يجرى الرواتب الكبيرة على الفقهاء والأدباء والقراء، ليرغب الناس فى العلم، وكان هذا الأمير نفسه يشتغل بالعلم، ووجد فى تذكرة له :

«إذا فرغنا من حل أقليدس كله تصدقت بعشرين ألف درهم، وإذا فرغنا من كتاب أبى على الفارسى تصدقت بخمسين ألف درهم»(٢) وأمير

---

(١) راجع عصر الدول والإمارات ص ٢٨٢ وما بعدها .

(٢) عصر الدول والإمارات ص ٥٢١ .

يحب العلم ويقدره الى هذا الحد لاغرابة فى أن يقصده العلماء من كل جهة، وأن يصنفوا له الكتب فى سائر فروع العلم، وأن يتوجه إليه الشعراء ليقيموا فى ظلاله، ولقد سار خلفاء عضد الدولة على نهجه .

ولم تقل عناية الدولة الخوارزمية، والدولة السامانية، والدولة الغزنوية، والدولة السلجوقية بالعلم والثقافة والآدب عن عناية البويهيين.

وكان من الطبيعى أن يثمر هذا التنافس بين أمراء هذه الدول المتعاصرين والمتعاقبين فى تشجيع العلم والمعرفة والأدب زيادة فى عدد المشتغلين بالعلم، وزيادة فى الكتب والمصنفات فى شتى العلوم.

وصاحب هذا التشجيع انتشار المدارس والمكتبات فى كل مكان .

وبعد مدة قصيرة من دخول الإسلام إلى إيران نهضت علوم الشريعة واللغة فيها نهضة كبرى، وكان لإيران شرف إنجاب نخبة ممتازة من العلماء المبرزين فى هذه العلوم .

ففى التفسير قدمت الزمخشرى صاحب (الكشاف)، والفخر الرازى صاحب (مفاتيح الغيب)، والبيضاوى صاحب (أنوار التنزيل) والنسفى صاحب (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، والقشيرى إمام التصوف السنى.

وفى علوم الحديث أنجبت بلاد إيران البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه والترمذى وأبا داود، وهؤلاء هم أئمة الحديث وأصحاب الصحاح الستة.

وفى الفقه والأصول قدمت كثيراً من العلماء كالرازى والسمرقندى والسرخسى،وغيرهم.

وفى التاريخ أنجبت بلاد إيران الطبرى والبيرونى والعماد الأصبهانى،

والثعالبى، والسمعانى، وغيرهم.

وفى علوم اللغة قدمت أبا منصور الأزهرى واضع معجم (تهذيب اللغة) والفارابى صاحب معجم (ديوان الأدب) والجوهرى صاحب (تاج اللغة وصحاح العربية) والزمخشرى صاحب (أساس البلاغة) وأبا على الفارسى إمام النحاة فى القرن الرابع، وأبا هلال العسكرى، والإمام عبد القاهر الجرجانى، والقاضى الجرجانى، وغيرهم .

أما فى علوم الفلسفة والطب والكيمياء وغيرها، فقد اضطلعت البيئة الإيرانية بالقدر الأعظم من النهضة بهذه العلوم فى الدولة الإسلامية، فلقد فاد الإيرانيون من تراثهم القديم فى هذه العلوم، وقدموا للحضارة لإسلامية والعالمية أكبر الأطباء والفلاسفة وعلماء الهندسة والجغرافيا كابن سينا والبيرونى والرازى والخوارزمى وغيرهم[1] .

وهذا يؤكد صحة ما قاله ابن خلدون وقرره من أن أكثر حملة العلم فى الإسلام من العجم[2] ، بيد أنا نقول إن الإسلام صهر كل الأجناس فى بوتقة واحدة، وجعلهم ينتمون إلى حضارة جديدة هى الحضارة الإسلامية التى لايصح فيها التمييز بين جنس وجنس، فكل علماء إيران ينتمون إلى الإسلام ديناً والعربية لغة، وكان قصدهم بما قدموا من علم خدمة كتاب الله وسنة رسوله ودولة الإسلام التى نعموا فى ظلها بالرحمة والعدل والأمن.

٤- الشام :

لبلاد الشام تاريخ عريق فى خدمة الثقافة والأدب، ويرجع ذلك إلى المكانة السياسية التى أخذتها فى تاريخ مبكر منذ اتخذ بنو أمية من دمشق

(١) راجع عصر الدول والإمارات ص ٥٢١ وما بعدها، والأدب فى العصر الأيوبى ص ٩٨.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٠ .

عاصمة لهم، فأصبحت مركزاً مهماً من مراكز الثقافة والعلم، وشد إليها كثيرمن العلماء والأدباء والشعراء رحالهم لينعموا بالحظوة عند أمرائها.

وبلغ ازدهار النشاط العلمى والأدبى أوجه فى القرن الرابع خاصة فى ظلال سيف الدولة الحمدانى الذى أبدع المتنبى فيه كثيراً من المدائح.

ومع أن الحركة العلمية بعد القرن الرابع لم تكن بالنشاط نفسه الذى كانت عليه إبانه، فإنها ظلت قائمة، متجددة التيار، وأدت المساجد الكبرى كالجامع الأموى بدمشق دوراً كبيراً فى تنشيط هذه الحركة.

ولم يفتر تشجيع الحكام للعلم والأدب فى الشام، فأثناء خضوعها للفاطميين، عمل الفاطميون على تشجيع المذهب الشيعى ونشره وكان ذلك عن طريق إنشاء المدارس والمكتبات، كما شجع الأيوبيون العلماء والأدباء وقربوهم من مجالسهم .

ولم تكن دمشق وحدها هى حاضرة الثقافة والعلم، فقد كانت حلب والقدس وطرابلس ذات دور مهم فى تنشيط حركة العلم والأدب، وانتشرت فيها كذلك المدارس والمكتبات العامرة، وقد بلغت الكتب التى حوتها إحدى المكتبات فى طرابلس مائة الف مجلد.

وعلى الرغم من أن بعض الدارسين يحكم على الحركة العلمية فى الشام بالضعف بعد انقضاء القرن الرابع، فإن البيئة الشامية لم تخل من علماء كبار وأدباء مشهورين، وممن أنجبتهم هذه البيئة : أبو الفضل الحارثى الدمشقى، عالم الرياضيات المتوفى سنة ٥٠٠ هـ، ومحمد القيسرانى الدمشقى، عالم الهندسة والفلك، والطبيب الشاعر أبو الحكم بن المظفر، والحكيم الفيلسوف الشاعر عبد المنعم الجليانى، وأبو العلاء المعرى،

وابن حيوس، وابن الخياط، وابن سنان الخفاجى، وغيرهم(١) .

٥- مصر :

تأخرت نهضة الثقافة العربية فى مصر عن مثيلاتها فى البيئات الأخرى، وقد يكون من أسباب ذلك بعدها عن عواصم الدولة العربية فى عهودها الأولى، ويبدو أن الدور الكبير لمصر ادخره لها الله لتخلف بغداد بعد أن سقطت فى أيدى التتار، فأصبحت القاهرة قبلة العلماء والأدباء الذين فروا من وجه التتار، كما لجأ إليها علماء الأندلس وأدباؤها بعد أن غربت شمس العرب هناك.

ومن المعروف أن المكانة التى تبوءتها مصر فى ميدان العلم فى التاريخ القديم كبيرة، فقد اجتمعت فيها ثقافة الرومان وحضارة الفراعنة وحكمة الإغريق.

والتراث القديم هذا كان يمكن أن يؤهل مصر لدور كبير فى العلم والثقافة بعد أن فتحها المسلمون، لكن يبدو أن ذلك لم يتحقق إلا بعد الفتح بفترة طويلة، وقد ظل النشاط العلمى فى مصر منحصراً فى دائرة العلوم الدينية واللغوية، من تفسير وحديث وفقه ونحو وبلاغة وغيرها .

يقول الدكتور محمد كامل حسين :

« ..ولم تساهم مصر فى العلوم الدخيلة بالقدر الذى ساهم به العراقيون مثلاً، ولم تنشط فى مصر حركة الترجمة كما نشطت فى الأقطار الأخرى.. أما الكتب الفلسفية والمنطقية وغيرها ، وعلوم الفرس والهند فلم ينشط لها

---

(١) انظر الحياة الأدبية فى الشام فى القرن الخامس الهجرى ص ١١ وما بعدها د/ عبد الجليل حسن عبد المهدى - مكتبة الأقصى . عمان ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.

المصريون فى هذا العصر بالقدر الذى وجد فى العراق، ولكنها وصلت إليهم بعد أن نقلت إلى العربية فى الأقطار الشرقية»[1] .

وقد وصف الفيلسوف والأديب الأندلسى أمية بن أبى الصلت حال العلوم الفلسفية من طب وهندسة وفلك وغيرهاوحال المنتسبين إليها فى مصر عندما زارها أوائل القرن السادس، فقال :

» .. كنت فى أول جلوسى بهاشديد العناية بكتب جالينوس وبقراط، باحثاً عن مشكلها، فاحصاً عن مستغلقها، فحرصت كل الحرص، وجهدت كل الجهد على أن أجد من أهل هذه الصناعة من أستفيد منه، وأستزيد بمذاكرته، وأقدح خاطرى بمفاوضته، فلم أجد غير قوم طبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم، وطمس أفهامهم،وحال بين الحكمة وبينهم، فكانوا وإياى كما قال الشاعر :

قوم إذا جالستهم ... صدئت بقربهم العقول

لايفهمونى قولهم ... ويدق عنهم ما أقول

فهم كثير بى كما ... أنى بجمعهم قليل[2]

وقد أشار الدكتور محمد زغلول سلام فى كتابه (الأدب فى العصر الأيوبى) إلى رحلة ابن أبى الصلت الى مصر، وذكر بعضاً من كلامه فى وصف الحالة العلمية فى مصر، وتعجب الدكتور سلام من كلامه، وذكر أن واقع الحال فى ذلك العصر كان يخالف ما جاء فى وصف أمية، ومضى

---

(١) أدبنا العربى فى عصر الولاة ص ٨٩ دار الفكر العربي .

(٢) انظر الرسالة المصرية لأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى ص ٣٠ فى نوادر المخطوطات ج١ تحقيق عبد السلام هارون مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبى ط٢ - ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

الدكتور سلام فى حديثه عن النشاط العلمى الذى كان فى مصر، والذى كان للمساجد الكبيرة دور هام فيه كالجامع الأزهر ، وجامع ابن طولون، وجامع عمرو بن العاص، كما كان هناك مدارس أخرى كالمدرسة الفاضلية التى أنشأها القاضى الفاضل سنة ٥٨٠هـ، وألحق بهامكتبة ضمت مائة ألف مجلد .

ولم يقتصر النشاط العلمى على القاهرة، بل شاركت فيه عدة حواضر أخرى كالإسكندرية وقوص وأسيوط.

وأكد الدكتور سلام أنه كان فى مصر علماء مشهورون فى التفسير والقراءات والفقه والحديث والأدب، كابن معطى، والشاطبى، والأنبارى، والبوصيرى وغيرهم[١] .

والنشاط العلمى فى علوم الشريعة واللغة أمر مسلم، ولا نختلف مع الدكتور سلام فيما قاله بشأنه، ولكن الإنصاف يقتضى أن نناقش الدكتور فيما قاله عن كلام أمية بن أبي الصلت، ومخالفته فيه بدليل أن مصر كانت حافلة بالنشاط العلمى فى علوم الشريعة واللغة، فكلام ابن أبى الصلت منصب على حال المنتسبين الى العلوم العقلية أو الفلسفية والطب بصفة خاصة، وهوما وردت الإشارة صراحة إلى كتبه التى كان ابن أبى الصلت مهتماً بدرسها، وهى كتب جالينوس وبقراط، فقد وصف المنتسبين إلى هذه العلوم بالجهل، والانصراف عن الدرس المفيد فيها، ولم يستثن منهم غير على بن النضر الذى أشاد بفضله وتمكنه فى علوم الفلسفة والأدب[٢] .

والدكتور سلام نفسه يقرر أنه لم يبرز فى مصر من الفلاسفة وعلماء

(١) الأدب فى العصر الأيوبى ص ١٤٠ وما بعدها .

(٢) الرسالة المصرية ص ٤٠ .

المنطق والكلام أئمة متقدمون[1] .

وهو بذلك يكاد يتفق مع ابن أبى الصلت فيما وصف به المصريين في مجال العلوم الفلسفية من انصراف عنها وعدم اهتمام بها، ولهذا لم يبرز فى مصر من الفلاسفة أئمة متقدمون.

وهذا الحكم نفسه أكده الدكتور محمد كامل حسين إذ يقول: «ولم تلق كتب الفلسفة فى مصر الإسلامية الإقبال الذى كان فى غير مصر»[2] كما يقول فى موضع آخر :

«أما الكتب الفلسفية والمنطقية وغيرها وعلوم الفرس والهند، فلم ينشط لها المصريون فى هذا العصر بالقدر الذى وجد فى العراق»[3] .

ونخلص من هذا إلى أن العلوم الفلسفية فى مصر منذ الفتح الإسلامى حتى القرن السابع لم تكن متقدمة، وأنه لم يظهر فى مصر علماء مبرزون فى علوم الطب والفلك والهندسة، ومباحث النفس والأخلاق والسياسة وماوراء الطبيعة.

ومع هذا فقد ذكر ابن أبى أصيبعة عدداً من أطباء مصر الذين كان لهم نظر فى الحكمة وعلوم الأوائل، كما أشاد أمية بن أبي الصلت بالحكيم الأديب والفيلسوف الشاعر على بن النضر، ويبدو أن هؤلاء النفر لم يكونوا فى وزن نظرائهم من العراقيين والإيرانيين الذين صنف أكثرهم العديد من الكتب فى علوم الفلسفة .

---

(١) الأدب فى العصر الأيوبى ص ١٤٤ .

(٢) أدبنا العربى فى عصر الولاة ص ٩٧ .

(٣) السابق ص ٨٩ .

الفصل الثالث

الفلاسفة الشعراء

الذين ظهروا فى العراق

✺ ✺ ✺

١- ابن الشبل البغدادى

هو أبو على الحسين بن يوسف بن أحمد بن الشبل ، ولد ونشأ ببغداد، وإليها ينسب ، وهو أحد الفلاسفة الكبار والأدباء النابهين . قال عنه ابن أبى أصيبعة : « كان حكيمًا وفيلسوفًا ومتكاملا فاضلا ، وأديبًا بارعًا ، وشاعرًا مجيدًا »(١) .

كما قال عنه ياقوت : « كان متميزًا بالحكمة والفلسفة خبيرًا بصناعة الطب أديبًا فاضلا وشاعرًا مجيدًا ... وهو صاحب القصيدة الرائية التى نسبت إلى الشيخ الرئيس ابن سينا وليست له ، وقد دلت على علو كعبه فى الحكمة والاطلاع على مكنوناتها ، وقد سارت بها الركبان ، وتداولتها الرواة»(٢) .

توفى ببغداد سنة أربع وسبعين وأربعمائة .

وكان ذا موهبة شعرية أصيلة وخصبة ، يدل على ذلك كثرة ماروى عنه من شعر جيد ، فشعره مع تأثره بالفلسفة يمتاز بدفء العاطفة وجمال التعبير ، كما يمتاز ابن الشبل بطول النفس فى أشعاره، فلقد رويت له عدة قصائد يتراوح عدد أبياتها بين التسعة والأربعين بيتًا والتسعة الأبيات ، عدا مقطعات أخرى ومن جيد شعره رائيته التى أشار إليها ياقوت ، وهى قصيدة طويلة تدل على قوة اطلاعه ، وإلمامه بالعلوم العقلية ، وطول تأمله وبحثه فى الأسرار الإلهية ، ويبدؤها بخطاب الفلك المدار ، ويتخذ من هذا

---

(١) عيون الأنباء فى طبقاء الأطباء ج١ ص ٢٤٧ .

(٢) انظر د. شوقى ضيف عصر الدول والإمارات ص ٤١٨ - دار المعارف.

الفلك وسيلة للتساؤل عن العديد من مظاهر الكون وأسرار الخلق ، باحثًا عن العلة والسبب طالبًا معرفة الحقيقة فيقول[1] :

بربك أيها الفلك المدار | أقصد ذا المسير أم اضطرار
مدارك قل لنا فى أى شئ | ففى أفهامنا منك انبهار
وفيك نرى الفضاء وهل فضاء | سوى هذا الفضاء به تدار
وعندك ترفع الأرواح أم هل | مع الأجساد يدركها البوار
وموج ذى المجرة أم فرند | على لجج الدروع له مدار
وفيك الشمس رافعة شعاعًا | باجنحة قوادمها قصار
وطوق للنجوم إذا اتبدى | هلالك أم يد فيها سوار
وأفلاذ نجومك أم حباب | تؤلف بينه لجج غزار
وتنشر فى الفضا ليلا وتطوى | نهارًا مثلما طوى الإزار
فكم بصقالها صدىء البرايا | ومايصدى لها أبدًا غرار
تبارى ثم تحنس راجعات | وتكنس مثل ماكنس الصوار

والأبيات تصور حيرة لا قرار لها - كما يقول الدكتور شوقى ضيف - حول الفلك وحركته ، فهل هى اضطرارية من قبل الذات العلية أو هى اختيارية ، ويتساءل فى أى شئ مداره وحركته .

وهل ترفع الأرواح إلى عالمه العلوى أو تبقى مع الأجساد فى العالم السفلى ، وهذه المجرة التى تتدفق ليلا فى السماء بالنور هل هى موج من الأضواء كموج البحر أو هى أثر تموجات ضوئية تلمح كما يلمح تموج

---

(١) القصيدة بكاملها فى عيون الأنباء ج١ ص ٢٤٧ .

الضوء فى صفحة الفرند أو السيف[1] .

كما تساءل عن الشمس ، والنجوم ، والشهب ، والهلال عن طبيعتها وحركتها والقصد منها .

ثم ينتقل ابن الشبل بتأملاته إلى الأيام والدنيا ، فيرى أن الدهر ينثر الأعمار ويسقطها كما تتساقط الورود فى الروض ، وتزبل وتجف ، والدنيا ترضع بنيها النوائب والآلام ، وهى عشواء عجماء ، خرساء ، ضحاياها هدر لادية لهم ولا عوض .

والحياة فى رأيه يوم بدون أمس يسبقه ، أو يوم بدون غد يلحقه ، الأول يوم الميلاد ، والثانى يوم الوفاة ، ويتعجب الشاعر من أمر النفس وعلاقة الروح بالبدن وكيف يكون الفراق بينهما بعد طول الألفة وجميل الأنس ، فيقول :

ودهر ينثر الأعمار نثراً كما للورد فى الروض انتثار
ودنيا كلما وضعت جنينا غذته من نوائبها ظؤار[2]
هى العشواء ما خبطت هشيم هى العجماء ما جرحت جبار[3]
فمن يوم بلا أمس ليوم بغير غدٍ إليه بنا يسار
ومن نفسين فى أخذ ورد لروح المرء فى الجسم انتشار
وكم من بعد ما ألفت نفوس جسوماً عن مجاثمها تطار
ألم تك بالجوارح آنسات فلم بالقرب عاد لها نفار

(١) عصر الدول والإمارات ص ٤١٩ .

(٢) ظؤار : المرضعة لابن غيرها .

(٣) جبار : هدر لاقصاص فيه ولا غرام .

ويقفز ابن الشبل قفزات فى الزمن القديم ، مرتدًا بفكره وخياله إلى بدء خلق آدم ، ويذهب إلى أنه هو الذى أشقى بنيه بعصيانه أمر ربه وأكله من الشجرة المحرمة ، وهبوطه بعد ذلك من الجنة ، فلم ينفعه علمه بالأسماء ولا سجود الملائكة له !

وبذلك أدرك الشيطان غايته ، وحقق مأربه فى الكيد لآدم وبنيه وإغرائهم بمعصية الله - عز وجل - ، فخطيئة آدم - فى نظر الشاعر - هى سبب النقمة التى حلت على الإنسان ، والعار الذى لحق به ، ولولاها ماكانت المصائب والمتاعب التى يلاقيها الناس فى الدنيا ، وهى التى يأتون إليها ، دون إرادة ، ويخرجون منها من عير اختيار . وكل هذه الأمور - فى نظر الشاعر- ألغاز ليس لها تفسير وأدواء ليس لها دواء . يقول ابن الشبل :

فإن يك آدم أشقى بنيه	بذنب ما له منه اعتذار
ولم ينفعه بالأسماء علم	وما نفع السجود ولا الجوار
فأخرج ثم أهبط ثم أودى	فترب السافيات له شعار
فأدركه بعلم الله فيه	من الكلمات للذنب اغتفار
لقد بلغ العدو بنا مناه	وحل بآدم وبنا الصغار
وتهنا ضائعين كقوم موسى	ولا عجل أضل ولا خوار
فيالك أكلة ما زال منها	علينا نقمة وعليه عار
تعاقب فى الظهور وما ولدنا	ويذبح فى حشا الأم الحوار
وننتظر الرزايا والبلايا	وبعد فبالوعيد لنا انتظار
ونخرج كارهين كما دخلنا	خروج الضب أحوجه الوجار

فماذا الامتنان على وجود لغير الموجدين به الخيار
وكانت انعما لو أن كونا نخير قبله أو نستشار
أهذا الداء ليس له دواء وهذا الكسر ليس له انجبار
تحير فيه كل دقيق فهم وليس لعمق جرحهم انسبار

ثم يطير ابن الشبل بفكره وخياله من بداية خلق الإنسان إلى نهاية العالم ، فيتحدث عن القيامة ومايحدث فيها من أهوال ، حيث تكور الشمس وتنتثر الكواكب ، وتمور السماء ، وتسير الجبال - يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات - ويتساءل إذا حدث كل ذلك وفنى العالم ، فماذا يكون مصير العقل الإنسانى ، كما يتساءل عن السبب فيما يحدث للسماء والأرض من تغير فيقول :

إذا التكوير غال الشمس عنا وغال كواكب الليل انتثار
وبدلنا بهذى الأرض أرضًا وطوح بالسماوات انفطار
وأذهلت المراضع عن بنيها لحيرتها وعطلت العشار
وغشى البدر من فرق وذعر خسوف للتوعد لاسرار
وسيرت الجبال فكن كثبًا مهيلات وسجرت البحار
فأين ثبات ذى الألباب منا وأين مع الرجوم لنا اصطبار
وأين عقول ذى الأفهام مما يراد بنا وأين الاعتبار
وأين يغيب لب كان فينا ضياؤك من سناه مستعار[1]

---

(١) الخطاب فى البيت للفلك .

ومأأرض عـصته ولا سـماء	فـفيم يغول أنجـمها انكدار[1]
وقد وافــته طائـعة وكـانت	دخانا مالــفاتره شـــرار
قـضاها سبعة والأرض مهدا	دحـــاها فـــهى للأموات دار
فمـا لسمو ماأعلى انـتهاء	ولا لـسموك مارسـى قـرار
ولــكن كل ذا التهويل فيه	لذى الألــباب وعـظ وازدجار

والقصيدة تحمل تساؤلات فيها كثير من الجرأة وكثير من الحيرة ، ويبدو أن الشاعر أراد أن يعرف الحقائق ويكتشف الأسرار بعقله الفلسفى ، وأبحر بعقله هذا فى مناطق لايجدى فيها العقل شيئًا ، ولا ينفع عندها إلا الإيمان القلبى والتسليم بما ورد فى شأنها من نصوص الوحى الإلهى .

وأثر القرآن الكريم واضح جلى فى الأبيات الأخيرة التى تحدث فيها عما يصاحب القيامة من أهوال .

كما وردت فى القصيدة إشارات تدل على ثقافة ابن الشبل الفلسفية والتاريخية .

وله شعر رقيق فى الغزل يشبه فى طريقته وأسلوبه الغزل الصوفى الذى عبر فيه شعراء التصوف عن حبهم للذات الإلهية كما فى قوله[2] :

ليكفكم مافيكم من جـوى نـلقى	فـمهلا بـنا مهلا ورفقًا بنا رفقًا

---

(١) الضمير فى الفعل عصته والأفعال التى بعده عائد إلى الله عز وجل وإن لم يسبق ذكره.

(٢) عيون الأنباء جـ١ ص ٢٥٤ .

وحرمة ودى لا سلوت هـواكـم

ولا ردت منه لافـكاكا ولا عتقا

سأزجر قـلبًا رام فى الحب سلوة

وأهـجره إن لم يمت بكم عشقًا

غذيت الـهوى ياصاح حتى ألفته

فاضناه لى أشفى وأفناه لى أبقى

فلا الصبر موجود ولا الشعر بارح

ولا أدمعـى تطفى اللهيب ولا ترقا

أخاف إذا ماالليل مد سدوله

على كـبدى حرقًا ومن مقلتى غرقا

أيجمل أن أجزى عن الوصل بالجفا

وينعـم طرفى والفؤاد بكم يشقى

أحظى هذا أم كذا كل عاشـق

يضام فلا يعفى ويظمى فلا يسقى

سل الدهر علَّ الدهر يجمع بينـنا

فلم أر مـخلوقًا على حاله يبقى

وتبدو فى هذه الأبيات ألفاظ الغزل الصوفى وملامحه ، من ذكر الجوى والهجر والسلوة والوصل والفناء والبقاء والجفاء والشقاء ... إلى آخره

وله قصيدة ثانية يصف فيها مجالس الخمر وسعادته بها وشوقه إليها ، ويذهب فيها مذهب أهل اللذة الداعين إلى التمتع بما أتيح للإنسان من متع الدنيا قبل أن تنتهى حياته ، فأوقات السعادة لا تدوم ، واللذات غير باقية ، وإذا جاء الموت حرم الإنسان من كل متعة ... وهذا مبنى على إنكار الآخرة

فى زعمهم .

يقول ابن الشبل[1] :

بنا إلى الـــدير من درنـــا صبابات

فلا تلـــمنى فما تغنى الملامات

لا تبعدن وإن طـــال الزمـــان به

أيام لهـــو عـــهدناه وليـــلات

فكم قضيت لبـانات الشـــباب بها

غنـــما وكم بقيت عندى لبانات

ماأمكنت دولة الأفـــراح مقـبلة

فانـــعم ولذ فـإن العيش تارات

قبل ارتجاع الليالى وهى عـــارية

وإنمـــا لـــذة الـــدنيا إعارات

قم فاجل فى فلك الظلماء شمس ضحى

بروجـها الزهر طاسات وجامات

لعل إن دعا داعى الحـــمام بـــنا

نقـــضى وأنفسنا منها رويات

بم التـــعلل لـــــولا ذاك من زمن

أحـــياؤه باعتياد الهم أموات

قد وقع الدهر سطرًا فى صحـــيفته

لا فارقت شارب الخمر المسرات

---

(١) عيون الأنباء ج١ ص ٢٥٦، ودُرْنا: يقال : موضع بالعراق دون الحيرة بمراحل ، ويقال : هى باليمامة. راجع فوات الوفيات .

خذ ماتعـــجل واتـــرك ماوعـــدت به
فـعل اللـــبيب فللـــتأخير آفات
وللســـعادة أوقـــــات ميـــســـرة
تعطى السرور وللأحزان أوقات

وهذا الولوع بالخمر أثر من آثار شيوع اللهو والمجون، والإغراق فى الترف والملذات فى ذلك العصر ، ولقد كانت الأديرة تؤدى دورًا نشيطًا فى هذا المجال .

ولابن الشبل كذلك قصيدة فى رثاء أخيه (أحمد) لكنها ليست كسائر قصائد الرثاء ، إذ القدر الأكبر منها تساؤلات وتأملات فى حقائق الوجود والموت والمصير

بدأها بتـــقـــرير أن كل شئ ينتـــهى وينقـــضى ، الحـــزن والبكاء والسروروجميع الأحياء ، لكن للفقد مرارة تبقى غصصا فى حلوق الأحياء بعد أن تختطف المنية أحبابهم . يقول ابن الشبل فى مطلع قصيدته[1] :

غاية الحزن والسرور انقضاء   مالحـى من بـعد ميت بقاء
لا لبيد بأربد مـــات حـــزنا   وسلت عن شقيقها الخنساء
غير أن الأموات زالوا وبقوا   غصصا لا يسيغـها الأحياء

ثم يتحدث عن مآسى البشر فى الحياة ، ومايلاقونه من آلام الدنيا ومتاعبها ، هذه الدنيا التى تسلب ماأعطت ، وتسيئ بقدر ماتحسن ، وحياة

---

(١) عيون الأنباء جـ١ ص ٢٥٢ .

الإنسان فيها قصيرة ، كأنها حلم غير معقول :

إنما نحن بـــين ظــفر وناب   من خطوب أسودهن ضراء
نتمنى وفى المنى قصر العمر   فنــغدو بما نــسر نساء
صحة المرء للسقام طـــريق   وطريق الفـناء هذا البقاء
بالذى نغتذى نمــوت ونــحيا   أقتل الداء للنفوس الدواء
مالقينا من غدر دنيا فلاكانت   ولا كـان أخـذها والعطاء
راجع جودها عليها فمـــهما   يهب الصبح يسترد المساء
ليت شـــعرى، حلمًا تمر بنا الأيام أم ليـس تعقل الأشياء

وهكذا صور الشاعر مافى الدنيا من أمور متناقضة تحير العقول والأفهام ، فالناس يساؤن بما يسرون به ، والصحة طريق للسقام ، والبقاء طريق الفناء ، وأقتل الداء الدواء ، والغذاء سبب للحياة وسبب للموت ، وجود الدنيا راجع إليها، ومايهبه الصبح يسترده المساء ، وكفى بهذا التناقض لغزًا!

ويرجع ابن الشبل مايلاقيه الإنسان من عناء فى الدنيا إلى وجوده فيها، ويذهب إلى أن اللذة التى يجدها الآباء والأمهات فى الإنجاب تنقلب على أبنائهم شقاء وعذابًا ، ولولا الحياة ماشعر الإنسان بمرارة الموت ، ثم يعرب عن شكه فى أمر البعث غير معترف بأن البدء دليل الإعادة ، لأن الناس مختلفون فى الوجود المرئى وخالقه ، ولآن فناء الجلود والأعضاء بعد الموت تستبعد معه العودة والحياة مرة أخرى - هكذا ازعم - فقال :

ولقد أيــد الإلـــه عــقولا   حجة العود عندها الإبداء
غير دعوى قوم على الميت شيئًا   أنكرتــه الجلود والأعضاء
وإذا كان فى الــعيان خلاف   كيف بالغيب يستبين الخفاء

بعد ذلك يصور حزنه على أخيه ، فقد ساءت حياته بعده ، وتكدر صفوه، وعاد الماء سمًا ، والنسيم الطيب سمومًا ، ودموعه لا تنقطع حزنا عليه ، ويتساءل متعجبًا من أمر الموت ، كيف اختطف أخاه ، وقد كان شجاعًا أبيًا ، وبليغًا حييًا ، ويعاهده على دوام حزنه عليه لأنه شطر نفسه وشقيق روحه فيقول :

مـــادهـــانا من يـــوم أحمد إلا
ظلـــــمات ولا استبان ضياء
ياأخي عاد بعدك الماء ســـــما
وســـمومًا ذاك النسيم الرخاء
والدموع الغزار عادت من الأنفاس
نـــارًا تـــثيرها الصعداء
أين ماكنت تنتـــضي من لـــسان
فـــي مقـــام للمواضي انتضاء
كيـــف أرجـــو شفـــاء ومـالي
دون ســـكناي فـــي ثراك شفاء
أين ذاك الرواء والمنطق المونـــق
أيـــن الحـــياء أيـــن الإبـاء
إن محا حسنك التراب فما للـــد
مـــع يومًا من صحن خدي انمحاء
أو تبن لم يـــبن قـــديم وداد
أو تمـــت لم يمـــت عليك الثناء
شطر نفسي دفنت والشطر باق
يـتمـــنى ومـــن مـــناه الفناء

ولم يطل حديث الشاعر عن أخيه وعن حزنه عليه ، فقد انصرف بعد الأبيات السابقة إلى التأمل فى حقيقة الموت والفناء اللذين يدركان كل الأحياء ، ولا فرق عندهما بين إنسان وحيوان ، أو نبى وتقى ، وصالح وغوى، ولا ينجى منهما علم أو حلم أو مال أو جمال ، فالموت مصير الأحياء جميعًا لا محالة :

إن تكن قدمته أيدى المنايا

فإلى السابقين تمضى البطاء

يدرك الموت كل حى ولو أخفته

عنه ببرجها الجوزاء

ليت شعرى وللبلى كل ذا الخلق

بماذا تميز الأنبياء

موت العالم المفضل بالنطق

وذا السارح البهيم سواء

لا غوى لفقده تبسم الأرض

ولا للتقى تبكى السماء

كم مصابيح أوجه أطفأتها

تحت أطباق رمسها البيداء

كم بدوروكم شموس وكم

أطواد حلم أمسى عليها العفاء

كم محاغرة الكواكب صبح

ثم حطت ضياءها الظلماء

إنما الناس قادم إثر ماض

بدء قوم للآخرين انتهاء

ولابن الشبل أبيات فى الحكمة تدل على بصره الثاقب بالحياة وصروفها، وإدراكه لأسرار النفس وحالاتها ، ومعرفته بالناس وطبائعهم ، ومن هذه الحكم قوله [1] :

إذا أخنى الزمان على كريم أعار صديقه قلب العدو

وقوله[2] :

تلق بالصبر ضيف الهم ترحله

إن الهموم ضيوف أكلها المهج

فالخطب مازاد إلا وهو منتقص

والأمر ماضاق إلا وهو منفرج

فروح النفس بالتعليل ترض به

عسى من ساعة إلى ساعة فرج

وقوله [3] :

لا تظهرن لعازل أوعاذر حاليك فى السراء والضراء

فلرحمة المتوجعين حرارة فى القلب مثل شماتة الأعداء

وقوله [4] :

يعنى البخيل بجمع المال مدته وللحوادث والأيام مايدع

كدودة القز ما تبنيه يهدمها وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

وواضح من هذا الشعر الذى تنوعت أغراضه أن ابن الشبل كان ذا موهبة أصيلة ، مكنته من التعبير عن الأفكار الفلسفية والتأملات الفكرية

---

(١) و (٢) عيون الأنباء جـ١ ص ٢٥٤ .

(٣) و (٤) راجع : فوات الوفيات لمحمد بن شاكر تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

والقضايا الإنسانية ، فى معارض جميلة من الألفاظ الموحية والصور البديعة الرائعة ، التى لم تفقد دفء العاطفة ولا روعة الخيال ، واستحق بذلك أن يترجم له مع الأباء ، وأن يذكر ضمن الشعراء ، وأن تعرف له منزلته بينهم ، كما عرفت بين الفلاسفة والحكماء .

* * *

٢- أمين الدولة ابن التلميذ

هو أبو الحسن هبة الله بن أبى العلاء صاعد بن إبراهيم بن التلميذ ، أحد الأطباء الكبار الذين عرفتهم بغداد ، كان ذا اطلاع واسع على العلوم الفلسفية ، مجيداً للغة السريانية والفارسية ، مع تمكنه من اللغة العربية .

وله شعر مستطرف وترسل جيد ، خدم خلفاء بنى العباس وارتفعت مكانته لديهم ، وذاع صيته فى مجال الطب ، وغلبت شهرته فيه على شهرته فى غيره(١) .

ويظهر فى أشعاره التى أثرت عنه تأثره بأفكار الفلسفة وألفاظ الفلاسفة ، وهى أشعار تدل على ظرف وخفة روح وميل إلى الفكاهة .

كان يكتب النصائح الطبية لأصدقائه فى أبيات شعرية ، فقد كان يعالج أبا القاسم على بن أفلح ، ونهاه عن الأكل إلا بأمره ، فكتب إليه بعد مدة يشكو الجوع ، ويطلب منه أن يسمح له بأكل قطعة من الخبز ، فأجابه ابن التلميذ بقوله(٢) :

هكذا أضياف مثلى ... يتشاكون المجاعه

غير أنى لست أعطيك ... مضراً بشفاعه

فتعلل بسويق ... فهو خير من قطاعه

بحياتك قل لما نر ... سمه سمعاً وطاعه

(١) راجع عيون الأنباء جـ١ ص ٢٥٩

(٢) المرجع السابق .

ويبدو أثر خبرته الطبية ، ودقة ملاحظته للأعراض وحسن توصله إلى النتائج فى قوله[1] :

إذا وجـد الشيخ فى نفسه نشاطًا فـذلك مـوت خفى

ألست ترى أن ضوء السـراج لـه لهـب قبل أن ينـطفى

وقد ساق هذه الملاحظة الطبية فى صورة بيانية إذ شبه ماقد يجده الشيخ فى نفسه من قوة ونشاط باللهب الذى يرتفع فى السراج قبل أن ينطفئ ، فهذه القوة التى يجدها الشيخ - أحيانًا - ليست قوة دائمة ، بل هى عما قليل تزول بالموت .

ومن شعر ابن التلميذ قوله - إلغازًا - فى الميزان[2] :

ماواحد مختلف الأسماء يعدل فى الأرض وفى السماء

يحكـم بالقسط بلا رياء أعـمى يرى الإرشاد كل راء

أخـرس لا من علة وداء يغـنى عن التصريح بالإيماء

يجيب إن ناداه ذو امتراء بالرفـع والخفض عند النداء

يفصح إن علق فى الهواء

وهذه الأبيات - وإن جاءت فى معرض الإلغاز - تحمل بعض التعريض بالإنسان الذى كرمه الله بالعقل والبصر والنطق ، وهو مع ذلك يجافى العدل والحكمة فى كثير من الأحيان .

---

(١) عيون الأنباء ج١ ص ٢٦٣ .

(٢) راجع وفيات الأعيان ج٥ ص ١١٩ لابن خلكان .

وأراد ابن التلميذ تصوير حبه لابنه وعاطفته نحوه ، وهى عاطفة أشد من عاطفة الابن نحو ابيه ، فعرضها فى معرض فلسفى إذ قال(١) :

حبى سعيداً جوهر ثابت　　　وحـــبه لى عرض زائل

به جهاتى الست مشغولة　　　وهو إلى غيرى بها مائل

لكنه فى موضع آخر يصور هذه العلاقة بينه وبين ابنه تصويراً شعرياً فيقول(٢) :

أشكو إلى الله صاحباً شكا　　　تسعفه النفس وهو يعسفها

فنحن كالشمس والهلال معاً　　　تكسبه النور وهو يكسفها

ويستخدم ألفاظ الفلاسفة والمناطقة فى قوله(٣) :

تعس القياس فللغرام قضية　　　ليست على نهج الحجا تنقاد

منها بقاء الشوق وهو بزعمهم　　　عرض وتفنى دونه الأجساد

ومن شعره فى العتاب والاستعطاف قوله(٤) :

يامن رمانى عن قوس فرقته　　　بســهم هجر غلا تلافيه

ارض لمن غاب عــنك غيبته　　　فــذاك ذنب عقابه فيه

وكان بينه وبين أبى البركات هبة الله بن على بن ملكان تنافر وتنافس،

(١) الوفيات جـ٥ ص ١١٩ .
(٢) عيون الأنباء جـ١ ص ٢٦٣.
(٣) الوفيات جـ٥ ص ١١٩ .
(٤) المصدر السابق .

وكان الأخير يهودياً ثم أسلم فى أخر عمره ، ولابن التلميذ فى السخرية منه قوله[1] :

لنا صديق يهودى حماقته إذا تكلم تبدو فيه من فيه

يتيه والكلب أعلى منه منزلة كأنه بعد لم يخرج من التيه

وفيه إشارة إلى ماحدث لليهود من تيه فى الصحراء عقوبة لهم .

ومن فكاهتة الساخرة قولة[2] :

قد قلت للشيخ الجليل الاريحي أبي المظفر

ذكر فلان الدين بى قال المؤنث لا يذكر

وقد آثنى القفطى فى تاريخ الحكماء علي شاعرية ابن التلميذ ، وأورد بعض آشعاره ، ومنها قوله فى تصوير الشباب والمشيب :

كانت بلهنية الشبيبة سكرة فصحوت واستأنفت سيرة مجمل

وقعدت أرتقب الفناء كراكب عرف المحل فبات دون المنزل[3]

وقد توفى ابن التلميذ سنة ستين وخمسمائة ببغداد .

* * *

(١) السابق .

(٢) عيون الأنباء ج١ ص ٢٦٣ .

(٣) تاريخ حكماء الإسلام القفطى ص ٢٣٢ مكتبة المثنى ببغداد - مؤسسة الخانجى بمصر .

٣- البديع الإصطرلابى

هو أبو القاسم هبة الله بن الحسين بن أحمد البغدادى، حكيم أديب ، وعالم طبيب ، وفيلسوف متكلم ، كان متقنا لعلوم الرياضيات والنجوم والرصد ، ولتفوقه فى علم الاصطرلاب وعمله عرف به ونسب اليه(١) .

ويبدو أنه كان متمكنا من الشعر ، مالكا أدواته ،، وقد ظهرت فى شعره الذى روى عنه آثار مهنته وثقافته .

من ذلك قوله فى وصف وجه جميل يزينه خال :

وذو هيئة يزهو بخال مهندس	أموت به فى كل وقت وأبعث
ميط بأوصاف الملاحة وجهه	كأن به إقليدس يتحدث
فعارضه خط استواء وخاله	به نقطة والخد شكل مثلث(٢)

ومنه أيضا قوله(٣) :

تقسم قلبى فى محبة معشر	بكل فتى منهم هواى منوط
كأن فؤادى مركز وهم له	محيط وأهوائى اليه خطوط

فالالفاظ التى استخدمها فى الابيات السابقة من مصطلحات العلوم الهندسية والجغرافية وهى : (مهندس - محيط - اقليدس- خط استواء -

---

(١) عيون الأنباء ج١ ص ٢٨٠ .

(٢) السابق ص ٢٨١ .

(٣) نفسه ص ٢٨٢ .

نقطة – شكل – مـثلث – مـركـز – خطوط) وله مع هذا شـعـر يبـرأ من هذه المسحة العلمية الجافة ، ويلم فيه بصور شعرية جيدة ، من ذلك قوله فى المديح :

أهدى لمجلسك الشريف وانما   أهدى له ماحزت من نعـمائه

كالبحر يمطره السحاب وماله   مـن علـيه لأنه من مائه(١)

فإهداؤه للمدوح ليس له فيه فضل ولا منة اذ الممدوح هو مصدر كل خير عنده ، وهو منه مستمدماءه .

ومن تصرفه فى المعانى والصور قوله فى ذم أهل العراق(٢) :

ياصـدور الزمان ليس بوفر   مارأيناه فى نواحى العراق

إنما عم ظلمكم سائر الأرض   فـشابت ذوائـب الآفاق

ففى هذين البيتين نفى لأن يكون ماغطى أرض العراق ثلج لونها باللون الأبيض ، وادعاء أن هذا البياض شيب أصاب الآفاق بسبب ماارتكبه أهل العراق من ظلم .

ومن هجائه الساخر ماروى له فى صفة فاصد لايحصل من عمله نفع ، ولاينتج من فصده غير إراقة الدم ، وهو لهذا يملأ المكان الذى يحل به رعبا وفزعا ، وماأحراه أن يؤخذ فى مواجهة الأعداء ليلقى بمبضعه الرعب فى قلوبهم . يقول(٣) :

وفـاصـد مبضعـه مشرع   كـــأنه جاء الى حرب

(١) العيون جـ١ ص ٢٨١ .
(٢) العيون جـ١ ص ٢٨٣ .
(٣) السابق ص ٢٨٣ .

فصد بلا نفع فما حـــاصل غير دم يــخرج من ثقب

لو مر فى الشارع من خـارج لمات من في داخل الدرب

خذه إذا جاشت عليك العدا فوحده يغـــنيك عن حرب

ومن هذا القبيل أيضا قوله فى وصف طفيلى بخيل[1] :

مستيقظ فإذا استضيف بــه يصــير من النيام

وتراه فى عـدد الطـغام إذا رأى مـضغ الطعام

تبــدو مصائبه العـظام أوان تجــريد العظام

والصنعة فى هذه الأبيات واضحة ، فقد قابل بين (مستيقظ) و (نيام)، وجانس بين (الطغام) و (الطعام) وبين (العظام) بمعنى الكبار و(العظام) جمع عظم .

كما تبدو هذه الصنعة البديعية واضحة ، فى قوله يصف حماماً فى دارصديق له[2] :

ودخلت جنته وزرت جحــيمه وشكرت رضوانا ورأفة مالك

والبشر فى وجه الغلام نتـيجة لمـقدمات ضياء وجه المالك

ففيه مقابلة بين الجنة والجحيم ورضوان ومالك والغلام والمالك ، وفى البيتين كذلك تعبير من اصطلاحات أهل المنطق والفلسفة وهو قوله (نتيجه لمقدمات) فى البيت الثانى .

وتوفى البديع الأصطرابى سنة نيف وثلاثين وخمسمائة .

---

(١) السابق .

(٢) تاريخ حكماء الإسلام ص ٣٣٣ .

٤- أبو القاسم هبة الله بن الفضل بن القطان

هو أبو القاسم هبة الله بن الفضل بن القطان ، ولد ببغداد سنة ٤٧٨ ، ودرس الحديث والطب وأتقن الطب فعمل طبيبا ، وغلب الشعر عليه ، وكان معاصرا لامين الدولة ابن التلميذ والبديع الاصطرلابى .

وعرف هبة الله بن الفضل بحدة لسانه ، وكثرة نوادره ، وكان بينه وبين الامير أبى الفوارس سعيد بن محمد الصيفى الشاعر المسمى حيص بيص شنآن وتهاتر(١) .

ويبدو وأنه كان ذا موهبة أصيلة فى الشعر ، وكان بارعاً فى الهجاء، يسلك فيه مسلك السخرية والتهكم ، وكان يسخر من نفسه كذلك ، ومن شعره الذى سخر فيه من الحيص بيص ومن نفسه قوله:(٢)

خذ عقلنا من عقدنافيـما ترى	ـمـن خسة ورقاعة وتـهور
تكريت تعجزنا ونحن بجـهلنا	نمضى لنأخذ ترمذا من سنجر
أما الحويزى الدعـى فإنـه	دلو يـشوب تكبرا بتمسخر
يكنى أبا العبـاس وهو بذلة	حكـمت عليه وأسجلت بمعمر
فى كـف والده وفى أقـدامه	أثار نيل لا يـزال وعصـفر
يمشى الى حجر القيان بنشطة	ويدب فى المحراب نحو المنبر

---

(١) راجع عيون الأنباء جـ١ ص ٢٨٣، وعصر الدول والإمارات ص ٣٦٥ .

(٢) عيون الأنباء جـ١ ص ٢٨٣ .

وحديثه فى الحق أو فى باطل لم يــــخله من وحشة وتهزر

وفى الابيات سخرية من فرقة عسكرية عجزت عن أخذ تكريت فطمحت الى ماهو أكبر إذ مضت لتأخذ مدينة ترمذ ، وقد رسم الشاعر صورة ساخرة لمن سماه الحويزى أبا العباس، وقد كان هو والحيص بيص من أفراد هذه الفرقة التى سخر منها، ونال من الحيص بيص ومن نفسه فى قوله :

والحيص بيــص مبارز بقناته وأنا بشـــعشعتى طبيب العسكر

هذاك لا يخشى لقتل بعوضة وأنا فـــلا أرجى لبـرء مـــدبر

أجرى بمبضعى الدماء وسيفه فى الغمد لم يعرض لظفر الخنصر

لقرينه فى الحرب طول سلامة وصـــريع تدبيـــرى بوجه مـــدبر

وفى الابيات مفارقة ساخرة نتجت عن صورة عجيبة يبدو فيها الأمير أبو الفوارس (الحيص بيص) لا يخشى لقتل بعوضة فضلا عن قتل الأعداء، فسيفه فى غمده لا يخرج ، وهو محارب المفترض فيه الشجاعة والإقدام !

كما يبدو الشاعر نفسه – وهو طبيب الجيش الذى يرجى على يديه شفاء المرضى وإبراء ذوى العلل – يبدو فى الصورة الساخرة مصدر شر ووبال يصرع بمبضعه المرضى !

ومن شعره فى هجاء الحيص بيص والسخرية منه كذلك قوله ، وكانت قد نبحت عليه كلبة فقتل بسيفه جرواً لها(١) :

(١) عيون الأنباء جـ١ ص ٢٨٨ .

ياأيها الناس إن الحيص بيص أتى	بفعلة أورثته الخزى فى البلد
هو الجبان الذى أبـدى شجاعـته	على جرى ضعيف البطش والجلد
فأنشدت أمه من بـعد ما احتسبت	دم الأبـيلق عند الواحد الصمد
أقول للنـــفس تـاساء وتـعـزية	إحدى يدى أصابتنى ولـم تـرد
كلاهما خـلف من فـقد صاحبه	هذا أخى حين أدعوه وذا ولـدى

ولم يسلم من هجائه ابن التلميذ والبديع الاصطرلابى اللذان عاصراه .

ومن ظريف شعره قوله(١) :

غزال قـط لايهوى	سوى المطبوعة التبر
ولا يعجبه المطبوع	من نظمى ولا نثرى

وله غزل يشكو فيه الهجر ويتمنى الوصال ، ويعاتب المحبوب على انصرافه عنه ، وهو غزل لا أثر فيه لعاطفة صادقة أو تجربة حقيقية، يقول فيه (٢) :

يامن هـــجرت ولا تبالى	هل تـرجعن دولة الوصـال
ما أطمع ياعـذاب قلبى	أن يـنعم فى هواك بـالى
الطرف من الصـدودباك	والجـسم كما تـرين بـالى
والقلب كما عهـدت صاب	باللـوعة والغرام سـالى

(١) العيون جـ١ ص ٢٨٩ .

(٢) السابق ص ٢٨٥ .

والشوق بخاطرى مقيم ... ما يؤذن عنه بارتحال

يامن نكات صميم قلبى ... بالحزن وصورة الخيال

ولو شئت وقفت عند حد ... لا يسمح منك فى الدلال

ما ضرك أن تعللينى ... فى الوصل بموعد محال

أهواك وأنت حظ غيرى ... ياقاتلى فما احتيالى

ومن شعره الذى يمكن أن يعد حكمة قوله[1] :

لا أمدح اليأس ولكنه ... أروح للقلب من المطمع

أفلح من أبصر عشب المنى ... يرعى فلم يرع ولم يرتع

---

(١) نفسه ص ٢٨٨ .

٥ – العنترى

هو أبو الوليد محمدبن الصائغ الجزرى ، كان طبيبا مشهورا ، وعالما فيلسوفا ، وأديبا بارعا ، روى عنه الشعر فى أغراض كثيرة ، وله كتب ورسائل فى الفلسفة ، منها :

رسالة العشق الإلهى ، ورسالة الفرق مابين الدهر والزمان والكفر والأيمان ، ذكره ابن أبى أصيبعة فى أطباء العراق ، وأورد بعض أشعاره .

وكان أبو الوليد يكتب القصص الذى دار حول عنترة العبسى ويرويه ، فنسب اليه ، وأطلق عليه لقب (العنترى)[١] .

ويغلب على شعره طابع الفكر الفلسفى ، وتشيع فيه مصطلحاته ومن ذلك الشعر قوله[٢] :

وجودى به من كل نوع مركب	من العالم المعقول والمتركب
فذهنى مشكاة ونفسى زجاجة	تضئ بمصباح الحجا المتلهب
ونورى من النور الإلهى دائما	يصب على ذاتى بغير تسكب
وزيتى من الزيتونة العذب دهنها	تنزه عن وصف بشرق ومغرب
كأنى فى وصفى منارة راهب	بقنديلها الشفاف أشرق كوكبى

وفى الأبيات حديث عن حقيقة العقل والنفس كما تصورهما ، وهما فى

(١) عيون الأنباء جـ١ ص ٢٩٠ .

(٢) السابق ص ٢٩٠

رأيه قبس من النور الإلهى ، هذا النور الذى ضرب الله له مثلا فى القرآن الكريم ﴿ كمشكاة فيها مصباح . المصباح فى زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور ﴾ (١) .

وقد اقتبس العنترى من ألفاظ القرآن فذكر المشكاة والزجاجة والمصباح والنور والزيت والزيتون والدهن والشرق والغرب .

لكنه فى موضع آخر يتصور الخلق مزيجاً من النور والظلمة ، وأى العنصرين غلب على طبيعة المرء توجه نحوه ، ويبدو النور والظلمة فى هذا السياق رمزين للخير والشر، أو الهبوط والسمو . يقول (٢) :

كأننا ممتزج لم يزل	من عالم النور والظلم
فبعضنا يختارها داره	وبعضنا يرقى الى الأنجم

وفى شعره يتكرر الحديث عن العلم ويذهب الى أن معاداة الناس لأفكار غيرهم ترجع الى الجهل ، وعلى هذا فلو علم المرء كل علوم الورى – وهذا شئ مستحيل بالطبع – لأصبح صديقا لكل العالم ، ولا عتذر للناس فيما يخالفونه فيه ، لأن الاختلاف مركب فى الخلق بالطبع . يقول العنترى(٣) :

لو كنت تعلم كل ما علم الورى	جمعا لكنت صديق كل العالم
لكن هبلت فصرت تحسب كل من	يهوى خلاف هواك ليس بعالم

---

(١) سورة النور .

(٢) عيون الأنباء جـ١ ص ٢٩١ .

(٣) السابق ص ٢٩٢ .

استحى أن العقل أصبح ضاحكا مما تقول وأنت مثل النائم

لوكنت تسمع ما سمعت وعالما ماقد علمت خجلت خجلة نادم

وضع الإله الخلف فى كل الورى بالطبع حتى صار ضربة لازم

وفى الأبيات اشارة الى غزارة علمه ، ويبدو أنه كان مشهورا بعلمه الغزير ، معتزًا به على الرغم من نوائب الزمان التى أصابته ، مترفعًا بعلمه عن مواضع الهوان ، لأنه ذا نفس كريمة وهمة عالية ، وحسبه أنه حصل العلم النافع الذى يبقى ولا يفنى أثره ، أما مايفنى من حطام الدنيا فإنه لا يفكر فيه . يصور هذه المعانى فى قوله(١) :

قالوا رضيت وأنت أعلم ذا الورى بحقائق الأشياء عن باريها

تجتاب أبواب الخمول فقلت عن كره ولست بجاهل راضيها

لى همة ماسورة لى صاد فت سعد ا بغير عوائق تثنيها

ضاق الفضاء بها فلا يسطيعها لعلوها الأفلاك أن تحويها

ما للمقاصد جمة ومقاصدى ناط القضاء بها الفضا والتيها

أطوى الليالى بالمنى وصروفها ينشرننى أضعاف ما أطويها

إنى على نوب الزمان لصابر إما سيفنى العمر أو يفنيها

أما الذى يبقى فقد أحرزته والفانيات فما أفكر فيها

ويدفعه إيمانه بالعلم ، وإدراكه أن قيمة العلم أعلى مما يتنافس الناس فى تحصيله من متاع الدنيا ، الى إيصاء ابنه بالحرص على العلم والتزود

(١) عيون الأنباء جـ١ ص ٢٩٢ .

من الحكمة والانصراف عن حطام الدنيا الفانى فيقول[1] :

بنـــى تعلم حكمة النفس إنـها	**طريق الى رشد الفتى ودليل**
ولا تطلب الدنيا فإن كثـيرهـا	**قـليل وعما رقدة ستزول**
فمن كان فى الدنيا حريصًا فإنه	**يظل كئيب القلب وهـو ذليل**
ومن يترك الدنيا وأصـبح راهـبًا	**فما للأذى يومًا إليه سـبيل**

وعن الصـراع بين النفس والعـقل والطبع ، وتجـاذب الإنسـان بين الشهوات، والرغائب، والعادات، والواجب، وتحذير العقل من الإسراف فى اتباع ماتأمر به النفس يقول العنترى[2] :

نفـسى تطالبنى بما فى طبعها	**والعقل يزجرها عن الشـهوات**
والنفس تعلم أن ذلـك واجـب	**والطبع يجذبها إلى العادات**
والطبع يقصر عن مراد كـليهما	**فكلاهما وقف على الحسرات**
والنفس من خمر الحياة وسكرها	**ستفيق بين عساكر الأمـوات**

وللعنترى أشعار فى الغزل لا تدل على تجربة صادقة ، بل هى نظم بارد يشتمل على أوصاف الحسن التى قال فيها كل الشعراء ، وله أشعار كذلك فى وصف الطبيعة خاصة أشجار التفاح والنارنج والرمان وثمارها ، وله كذلك أشعار فى الهجاء والسخرية ، ومن طريف سخريته قوله فى امـرأة[3]:

---

(١) السابق ص ٢٩٣ .

(٢) عيون الأنباء جـ١ ص ٢٩٣ .

(٣) عيون الأنباء جـ١ ص ٢٩٧.

قد أقـــبلت غولة الصبايا تنظر من مـــحكم النقاب

فقلت من أعظم الـــرزايا قـــفل على منزل خراب

أحسن ماكنت فى عبـــاءة ملفوفة الرأس فـى جراب

ويبدو أن العنترى كان ذا عقيدة صحيحة صافية لم يعكر نقاءها شئ من الأفكار الفلسفية التى كانت شائعة فى عصره ، وقد مدح الشريعة فى قوله :

الــــشرع أصلح كل غاو مارد وأمـــــات شرة كل جان مارج

لولا الشريعة ماتجمع واستوى شمل الورى ومنوا بشرهائج

إن الشــــريعة حكمة ومنافع لـــــداخل ومصالح لخارج

والعــــقل نور الله إلا أنـــه للعالم المحسوس غير ممـازج

فمتى اكتفيت بفعل عقل داخل فسدت أمورك كلها من خارج

والأنبياء كواكب تهدى إلى سبل الهدى لذوى السرى والدالج[1]

وكان يشرب الخمر ، ثم تركها ، وتاب عنها ، وقال فى ذمها[2] :

نار الحميا ونـــار الفـــكر مذنـــهكا

جـــسمى تركـــت الحميا خشية النار

والكاس بالطبع تصدى عقل شـــاربها

والســـكر يســـلب منه حكمة البارى

(١) السابق ص ٢٩٧ .

(٢) المرجع السابق .

وقال أيضاً[1] :

صـــددت عن الصـــهباء لما وجدتها

نافـــرة مـــن طباعـــى وأخلاقى

وعوضت عنها النفس كاســات حـكمة

تعـللتها فازددت شوقًا إلى الساقى

وهكذا قال العنترى الشعر فى أغراض متعددة ، معبراً به عن عقله ومشاعره وآرائه الفلسفية وتجاربه فى الحياة .

* * *

---

(١) المرجع السابق .

٦- مهذب الدين ابن هبل

هو أبو الحسن ، على بن أحمد بن على بن هبل البغدادى ، قال عنه ابن أبى أصيبعة : «علامة زمانه فى الطب والعلوم الحكيمة ، متميز فى صناعة الآدب وله شعر حسن ، وكان متقنًا لحفظ القرآن الكريم ، ولد ببغداد فى ثالث وعشرين ذى القعدة سنة خمس عشرة وخمسمائة ، ونشأبها ، ثم انتقل إلى الموصل واستوطنها حتى وفاته»[١] .

له شعر جيد فى الحنين إلى العراق ووصفه منه قوله[٢] :

أيا أثلات بالعراق ألفتها ... عليك سلام لايزال يفوح

لقد كنت جلدًا ثاويًا بفنائها ... فقد عاد مكتوم الفؤاد يبوح

فما أحسن الأيام فى ظل أنسها ... قبيل طلوع الشمس حين تلوح

وقد غرد القمرى فى غسق الدجى ... وراعى حمام فى الأصول ينوح

ذكرت لياليى بالعراق وطيبها ... نطير لها شوقًا ونحن جموح

وفى أبيات أخرى يتحسر على فراق أحبته ، ويعلن أن ألم القتل أهون عنده من ألم الفراق ، ويتمنى أن يعود الوصال بينه وبينهم مرة أخرى ، ويستهل هذه الأبيات بخطاب دوحة هام فؤاده بذكرها ، ويرسل إليها السلام فيقول :

---

(١) عيون الأنباء جـ١ ص ٣٠٤ .

(٢) السابق ص ٣٠٥ .

أيا دوحة هام الفؤاد بذكرها
عليك سلام الله يادوحة الأنس

رمتنى النوى بالبعد منك وقربها
وقد كنت جارًا لاصقالك بالأمس

فياليت أنى بعد بعد أحبتى
قتلت كريمًا راضى النفس بالرمس

وإلا فليت الدهر يمكن منهم
بقبض حبال الوصل بالأنمل الخمس

إذا جال طرفى فى العراق وجوه
كأنى نظرت الأفق من مطلع الشمس

وله شعر فى الغزل تغلب عليه الصنعة ومهارة استخدام الألفاظ ولايدل على تجربة صادقة فى الحب كقوله[1] :

لقد سبتنى غداة الخيف غانية
قد حازت الحسن فى دل بها وصبا

قامت تميس كخوط البان غازلة
مع الأصائل ريحى شمال وصبا

يكاد من دمة خصر تدل به
يشكو إلى ردفها من ثقله وصبا

لو لم يكن أقحوان الثغر مبسمها
ماهام قلبى بحبها هوى وصبا

---

(١) السابق ص ٣٠٦ .

والصنعة اللفظية واضحة فى قافية الأبيات ، فكلمة (صبا) فى البيت الأول تعنى الشباب والجمال ، وكلمة (صبا) فى البيت الثانى نوع من الريح ، وقافية البيت الثالث (وصبا) تعنى التعب والمشقة ، وفى قافية البيت الأخير كلمة (صبا) المعطوفة على كلمة (هوى) بمعنى الحب والشوق .

ويدل ذلك على تمكن ابن هبل من اللغة وتميزه فى مجال الأدب مع تفوقه فى الطب وعلوم الفلسفة .

* * *

شعراء آخرون

فى ظل النهضة الثقافية الأدبية الشاملة لابد أن يكون هناك فلافسة شعراء لم يقدر لشعرهم أن يحفظ ويدون ، وعلى هذا لا نستبعد أن يكون هناك شعراء من طائفة الفلاسفة غير الذين وردت تراجم لهم وذكر لأشعارهم فى كتب التاريخ والتراجم والأدب .

والذين سبق الحديث عنهم من الشعراء الفلاسفة الذين ظهروا فى العراق هم الذين رويت لهم أشعار كثيرة وجيدة ، ولذا أفرد البحث لكل واحد منهم صفحات تلقى مزيداً من الضوء على مكانته فى مجال الشعر .

بيد أن ورد ذكر لبعض الفلاسفة الشعراء الآخرين فى كتب التراجم ولم ترد لهم أشعار ، أوردت لهم أشعار قليلة .

منهم مثلا ابن سدير ، أبو الحسن على بن محمد بن عبد الله ، وقد كان من أهل المدائن وسدير لقب أبيه ، وقد كان عالمًا بالطب ، ويقول الشعر ، وأورد له ابن أبى أصيبعة أبياتًا قليلة هى قوله :

أيا منقذى من معشر زاد لؤمهم
فـأعيا دوائـى واستكان له طبى

إذا اعتل منهم واحد فهو صحتى
وإن ظـل حـيا كدت أقضى به نحبى

أداويـهم إلا من اللـؤم إنه
ليـعيى عـلاج الحاذق الفطن الطب

ومنهم أيضًا كمال الدين بن يونس الذى قال عنه ابن أبى أصيبعة « كان متقنًا لعلوم الطب والحكمة والفقه » وقد كان مع ذلك يقول الشعر ، لكنه لم يكن مكثرًا مجيدًا على مايبدو .

* * *

الفصل الرابع

الفلاسفة الشعراء

الذين ظهروا في إيران

* * *

١- أبو الفرج ابن هندو

هو على بن الحسين بن هندو ، وأبو الفرج كنيته . فيلسوف وأديب وشاعر ، قرأ كتب الأوائل على على بن الحسن العامرى بنيسابور ، ثم على أبى الخير بن الخمار ، ترجم له البيهقى فى كتابه (تاريخ حكماء الإسلام)، وابن أبى أصيبعة فى (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) .

ولقد كان ابن هندو نابهًا فى علوم الطب والفلسفة ، وله فيها مؤلفات منها : (مفتاح الطب) ، و (المقالة المشوقة فى المدخل إلى علم الفلسفة) و(الكلم الروحانية من الحكم اليونانية) .

ولنبوغه فى الأدب وبراعته فى الشعر ، ترجم له ياقوت فى معجم الأدباء ، وأورد طائفة من شعره ، كما ذكره الثعالبى فى اليتيمة ، وروى بعض شعره فى باب (الشعراء الذين وفدوا على الصاحب بن عباد) ، وذكر الثعالبى أن ابن هندو كان مقربًا إلى الصاحب ، وأنه كان أحد كتاب الإنشاء فى ديوان عضد الدولة البويهى ، كما أثنى على شعره قائلا :

« ... فرد الدهر فى الشعر ، وأوحد أهل الفضل فى صيد المعانى الشوارد ، ونظم القلائد والفرائد ، مع تهذيب الألفاظ البليغة ، وتقريب الأغراض البعيدة ، وتذكير الذين يسمعون ويرون بقوله تعالى : (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ..)[١]

ولقد عد الدكتور شوقى ضيف ابن هندو فى طائفة شعراء الغزل[٢] .

---

(١) راجع يتيمة الدهر للثعالبى . تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد جـ٣ ص ٣٩٥ .

(٢) انظر : تاريخ الأدب العربى جـ٥ (وعصر الدول والإمارات) ص ٦٠٦دار المعارف ط ثانية ١٩٨٣ .

ويبدو أن الغزل هو الغرض الذى غلب على شعره ، وغزله رقيق عذب ، يدل على خفة روحه وظرف طبعه ، ورغبته فى الابتكار، وقدرته على التوليد فى المعانى والصور .

ومن نسيبه أبيات جاءت فى مقدمة إحدى قصائده فى الصاحب بن عباد وفيها يقول[1] :

لها من ضلوعى أن يشب وقودها ... ومن عبراتى أن تقض عقودها

بذلت لها الدمع المصون وإن غدت ... تما نعنى فى نظرة أستفيدها

سلام عليها حيث حلت فإننى ... عدمت فؤادى منذ عز وجودها

وكم ليلة زارت وقد لان أهلها ... وسامح واشيها وغاب حسودها

فحلت بتضيق العناق عقودها ... وحلى من در المدامع جيدها

ومن شعره يصف مشهد وداع بينه وبين من يحب فيقول :

تعانقنا لتوديع عشاء ... وقد شرقت بمدمعها الحداق

وضيقنا العناق لفرط شوق ... فما تدرى عناق أم خناق[2]

ولعل البيت الثانى موح بهذا الظرف الذى أشرت إليه ، فذكر الخناق ومايستدعيه من معانى الشقاق لا يسوغ إلا بالحمل على هذا الظرف الذى كثيراً ماجعل الشاعر يجمع فى تصويره بين المفارقات المتناقضة ، ومن هذا الباب قوله فى وصف الخمر :

---

(١) يتيمة الدهر جـ٣ ص ٣٩٥ .

(٢) راجع معجم الأدباء جـ١٣ ص ١٤١ .

هى جهد العقول سمى راحًا مــــثل مــاقيل للديغ سليم

إن تكن جنة النعيم فــفيها من أذى السكر والخمار جحيم(١)

فالخمر جهد سميت راحًا ، وإن تصور فيها نعيم ، ففيها كذلك أذى ، وإن كانت جنة ، فهى أيضًا جحيم ، وهكذا اجتمع فى الخمر بهذا الوصف مجموعة من الأوصاف المتناقضة كما يقال للديغ سليم .

ومن هذا الباب أيضًا قول ابن هندو :

حــلت وقــــارى فى شادن عــيون الأنام به تــعقد

غــدا وجــــهه كعبة للجمال ولى قلبه الحجر الأسود(٢)

ومما يدل على رغبته فى ابتكار المعانى وتوليدها ، الوقوع على صور جديدة مخالفة سبل الشعراء المطروقة فى شكوى الفراق إذ يقول :

ليس بى من أذى الفراق اكتئاب قد كفتنى عينى جميع اكتئابى

كـلما شئت أسـلبت دم قـلبى فــأرى فيه صورة الأحـباب(٣)

فهو ينفى أذى الاكتئاب عن نفسه بعد الفراق ، ويدعى أن عينه ترد عنه الاكتئاب والحزن ، لأنها عندما تبكى إثر الفراق تنزف دمًا من قلبه ، ولأن أحبابه يسكنون قلبه ، فإن صورتهم تبدو فى هذا البكاء أمام عينيه ، فيتسلى بها ، وينسى الفراق وألمه .

والتكلف واضح فى تصيد هذا المعنى ، ويصعب قبوله إلا بكثير من

---

(١) السابق ص ١٤٢ .

(٢) معجم الأدباء جـ١٣ ص ١٤٦ .

(٣) تاريخ الأدب العربى . د. شوقى ضيف جـ٥ ص ٦٠٧ .

التسامح . وقريب من ذلك أيضًا قوله

تقول لو كان عاشقًا دنفا ... إذن بــدت صفرة بخديه

لا تنكريه فإن صـــفرته ... غطت عليها دماء عينيه(١)

ويكثـر ابن هندو من اسـتـخـدام البـديع فى شـعـره ، خـاصـة الجناس والطباق ، ومن أمثلة ذلك قوله :

أيـا بـــدرًا بلا كــلف ... بـــه دون الـــورى كلفى

أبــــن لى در ثغرك مـــا ... بهاء الدر فى الصــدف(٢)

وقوله :

كل مــــالى فهو رهن مالـه ... مـــن فكاك فى مساء وابتكار

ففؤادى أبدًا أرهــــن هــوى ... وردائـــى أبـــدًا رهن عقار

فدع التفنيد ياصــــاح لنا ... إنما الربح لأصحاب الخسار(٣)

ففى البيتين الأولين استخدم كلمة كلف للدلالة على السحب التى تغطى وجه القمر ، وعلى الولوع والشغف وشدة التعلق ؛ كما استخدم كلمة الدر للدلالة على أسنان المحبوب ؛ وهو اسـتـخـدام مـجـازى ، واسـتـخـدمـهـا استخداما حقيقيا فى قوله : مابهاء الدر فى الصدف ؟ وفى الأبيات الثلاثة الأخيرة يلاحظ استخدام الجناس بين(مالى) و (وماله) والطباق بين (رهن وفكاك) وبين(مساء وابتكار) وبين (الربح والخسا رة) .

---

(١) يتيمة الدهر جـ٣ ص ٣٩٤ .

(٢) تاريخ الأدب العربى د/ شوقى ضيف جـ٥ ص ٦٠٧ .

(٣) معجم الأدباء جـ١٣ ص ١٣٩ .

ومن جيد شعره ماقاله فى وصف جيش الصاحب بن عباد ومديحه فى قصيدة طويلة منها(١) :

وشهباء يثنى الشهب كمتا نجيعها
إذا قارعت والكمت شهبا كديدها

تبدت لنا فى روضة تنبت القنا
بماء الطلى أغوارها ونجودها

أدارت سقاة البيض والسمر بيننا
كؤوس المنايا حين غنى حديدها

شفيت غليل الطير منها موسعا
قراها وهامات الكماة سهودها

غمائم إيماض السيوف بروقها
لديها وإرزام الخيول رعودها

ولاغيث إلا أن يصب على العدا
بنوء الظبا حمر المنايا وسودها

يبشرك النيروز باليمن مطلعا
عليك نجوما ماتغيب سعودها

فدم تدفع الجلى وتفترع العلا
وتبدأ أفعال الندى وتعيدها

---

(١) الأبيات فى اليتيمة جـ٣ ص ٣٩٦. الشهباء : الكتيبة يعلوها بياض السلاح، والشهب: البيض، كمتا : وصف من الكمتة، وهى لون بين السواد والحمرة. النجيع : الدم. الكديد: التراب الناعم، الشعريين : كوكبان هما الشعرى العبور، والشعرى العميصاء ، تزعم العرب أنهما أختا سهيل- راجع لسان العرب لابن منظور .

كسونا بك الأشعار قــدرا وزيـــنة
فــخيم بـــين الشـــعريين قصيدها
وسار بها الركبان فى كل بلـــــدة
ولـــولاك ماجـــاز اللهاة نشيدها

وتظهر فى تلك الأبيات قدرة ابن هندو على التصوير الشعرى، والتحليق بخياله فى أجواء فنه ، فالصاحب بن عباد ممدوح الشاعريشفى غليل الطير ، ويوسع لهاالقرى ، ويطعمها هامات الأعداء وأجسادهم .

وإذا كانت المعانى والصور التى تضمنتها الأبيات مطروقة فإن محاولة التجديد والتميز تبدو فى تصرف ابن هندو فى هذه المعانى والصور ، فقد جعل أرض المعركة روضة تنبت القنا ، ثم ذكر الأوصاف التى تناسب الروضة والعناصر التى تكون صورتها ، كالماء والغمائم والغيث والنوء ... وغيرها ، لكنه وظف هذه العناصر لتدل على جو الحرب ، ولتكون صورة المعركة .

فالروضة تنبت القنا ، والمحاربون سقاة يدورون بكؤوس الموت وتدور عليهم ، وصوت الحديد المتلاطم والسلاح المتشابك هو الغناء الذى يتردد فى هذه الروضة ، وإيماض السيوف بروق وإرزام الخيول رعود ، أما الغيث الذى يسقط فوق هذه الروضة العجيبة فهو المنايا السود والحمر التى تنصب على الأعداء .

ثم يدعو ابن هندو لممدوحه بدوام النصر والرفعة والسعد واليمن .

ويختم قصيدته بصورة شعرية جميلة تثبت لها الزينة والفخر والانتشار وعلو الشأن ، ويرجع ذلك إلى كونها فى مدح الصاحب بن عباد ، فلولاه

ماكانت هذه القصيدة، فهو ملهمها للشاعر، ومديحه موضوعها .

ولابن هندو أشعار فى أغراض أخرى ، كالفخر ، وشكوى الزمان ، وذم الناس ، والسخرية ، وغير ذلك ، ومنها قوله فى السخرية من زمانه :

يسر زمانى أن أناط بأهله — وأنف أن أعزى إليه لجهله

ويعجبنى أن أخرتنى صروفه — فتأخيرها الإنسان برهان فضله

فإنا رأينا قائم السيف كلما — تقلده الأبطال قدام نصله[1]

ومنها أيضا قوله :

لايوحشنك من مجد تباعده — فإن للمجد تدريجا وتدريبا

إن القناة التى شاهدت رفعتها — تنمو فتصعد أنبوبا فأنبوبا[2]

ويظهر أثر الفلسفة فى ميل ابن هندو الى التفصيل والتعليل المنطقى كما هو واضح فى أشعاره التى ذكرت فى المصادر التى تحدثت عن شعره بيد أن هذا التأثر بالفلسفة لم يفسد شعره ، ولم يفقده حلاوته ، وانظر الى هذا التعليل الطريف الذى يبرر به طلبه قبلة من محبوبته عند ارتحاله عنها إذ يقول :

قولا لهذا القمر البادى — مالك إصلاحى وإفسادى

زود فؤادًا راحلا قبلة — لابد للراحل من زاد[3]

---

(١) اليتيمة جـ٣ ص ٣٩٤ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) تاريخ الأدب العربى جـ٥ ص ٦٠٧ .

فكل مسافر لابد له من زاد ، وهو مسافر، والزاد الذى يحرص عليه هو قبلة من محبوبته، تعينه على السلوى حتى يعود إليها .

وهكذا يتلطف الشاعر فى التعليل الذى لاينكره المنطق ، ولا يضيق به الشعر ، وتلك البراعة الفنيه فى التعبير والتصوير هى التى أحلت ابن هندو مكانه المرموق بين الشعراء.

ويبدو أنه كان كثير التنقل والارتحال وله فى وصف حاله التى لم تستقر به فى موطن واحد قوله :

أطـال بين البلاد تجـوالى | قـصور مالى وطول آمالى
إن رحت عن بلدة غدوت إلـى | أخرى فما تستقر أحوالى
كـأننى فكرة الموسوس لاتبقى | لـدى لحظة على حال[1]

ولعل كثرة ارتحاله راجعة الى أنه لم يجد فى وطنه ماكان يتطلع إليه من عيش رغيد ظن أن تفوقه فى الفلسفه والأدب سيوفره له ، فلما لم يتحقق له ذلك شكا ضياعه بين أهل وطنه ، وذم زمانه فى كثير من أشعاره كقوله :

ضعت بأهل الرى فى أهلـها | ضياع حرف الراء فى اللثغه
صـرت بها بعد بلوغ المنى | أحـمد أن تبلغ بى البلغه[2]

وامتدح الارتحال فى مثل قوله :

خليلى ليس الرأى ماتـريان | فشـأنكما إنى ذهبت لشانى

---

(١) عيون الأنباء جـ٢ القسم الثانى ص ٣٦٥ ط. دار الفكر – بيروت .

(٢) معجم الأدباء ج١٣ ص ١٣٩ .

خليلى لولا أن فى السعى رفعة   لما كان يوما يدأب القمران(1)

ولخص تجربته فى هذا الأمر فى بيتين يجريان مجرى الحكمة اذ يقول:

قوض خيامك من أرض تضـــام بها

وجـــانب الـــــذل إن الذل يجتنب

وارحل إذا كانت الأوطان منقـــصة

فـــمندل الهند فى أوطانه حطب(2)

وتبدو فى أشعار ابن هندو بعض ملامح الحياة الاجتماعية والفكرية فى عصره ، ففيها حديث عن الخمر ، ويروى أنه حضر مجلس شراب واقتصر على أقداح يسيرة ثم أمسك فلما سئل عن عدم إكثاره منها قال :

أرى الخمر نارًا والنـــفوس جـــواهرا

فـــإن شـــربت أبدت طباع الجواهـــر

فلا تفضحن النـــفس يوما بـــشربها

إذا لـــم تـــثق منها بحسن السرائر(3)

وفيها كذلك حديث عن أفكار بعض الملاحدة الذين كانوا ينكرون البعث ، ويحـاولون نشـر هـذه الأفكار البـاطلة ، ويسـخـر ابن هندو من أفكار هؤلاء وأقوالهم إذ يقول:

---

(1) عيون الأنباء جـ٢ القسما لثانى ص ٣٦٥ .

(2) السابق نفسه .

(3) معجم الأدباء جـ ١٣ ص ١٤٤ .

وكافـــر بالمــعاد أمسى	**يغلبنى قوله الغـــلوب**
قال اغتنم لذة اللـــيالى	**وعد عن أجل مـــريب**
ضل هداه وجاء يهـــدى	**طـــب لعينك ياطـــبيب**
أأخطأ العالمون طـــرأ	**وأنت من بينهم مصيب(١)**

وهكذا استطاع الفيلسوف ابن هندو أن يعبر عن نفسه وأحداث حياته وعصره بالشعر .

* * *

(١) السابق ص ١٤٠ .

٢- ابن سينا

هو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا ، أكبر فلاسفة المسلمين وأشهرهم ، ويلقب بالشيخ الرئيس ، كان أبوه من أهل بلخ ، وانتقل منها إلى بخارى ، وتولى العمل بقرية من قراها يقال لها خرميثن ، وفيها ولد الرئيس أبو على ، واسم أمه ستارة ، وكان مولده سنة ٣٧٠ هـ ثلاثمائة وسبعين .

ثم انتقلت أسرته إلى بخارى ، وعنى أبوه بتربيته ، فأحضر له المعلمين، فلما بلغ عشر سنين من عمره كان قد أتقن علم القرآن العزيز والأدب ، وحفظ أشياء من أصول الدين والحساب ، ثم أقبل على دراسة الفلسفة الطبيعية والإلهية فتعلم المنطق والهندسة ، والفلك والطب وعلوم الأوائل ، واشتهر بعلمه الغزير وهو لا يزال فى السابعة عشرة من عمره ، فاستدعاه الأمير نوح بن منصور السامانى لمعالجته بعد أن عجز الأطباء عن مداواته ، وشاء الله أن يكون شفاؤه على يديه ، فاستبقاه عنده ، وأغدق عليه ، وآذن الأمير لطبيبه بدخول مكتبة القصر والاطلاع على كنوزها ، فقرأ فيها كتبًا كثيرة فى الفلسفة وعلوم الأوائل[1] .

ولما انهارت الدولة السامانية انتقل ابن سينا إلى خوارزام ، ثم أخذ يتنقل فى بلدان إيران حتى وصل إلى جر جان ، فأكرم أميرها قابوس بن وشكمير ضيافته ، فلما قتل قابوس سنة ٤٠٣ هـ ذهب ابن سينا إلى

---

(١) راجع عيون الأنباء ج٢ ص ١٠ ط الوهبية، ووفيات الأعيان جـ١ ص ٤١٩ وعصر الدول والإمارات ص ٥٢٧ .

أصفهان ، ونزل على أميرها البويهى علاء الدين بن كاكويه ، وظل هناك إلى أن توفى بهمذان سنة ٤٢٨ هـ .

وقد ترك ابن سينا تراثًا ضخمًا فى الفلسفة والطب والأدب أكثرها بالعربية وقليل منها بالفارسية ، وأشهر كتبه كتاب القانون فى الطب ، وكتاب الشفاء فى الإلهيات وعلوم الطبيعة والرياضيات ، وكتاب النجاة ، وكتاب الإشارات وغير ذلك ، وتبلغ مصنفاته المائة تقريبًا(١) .

واعتمد الأوربيون فى نهضتهم العلمية الحديثة على كثير من كتب ابن سينا ، فقد ترجموها إلى اللاتينية ، وأفادوا منها - خاصة - فى مجال الطب .

وقد حاول ابن سينا أن يوفق بين الدين الإسلامى وفلسفة اليونان ، وتمتزج الفلسفة اليونانية عنده بالحكمة الشرقية وبالتصوف أيضًا(٢) .

وكان ابن سينا يرى أن العقل هو أعلى قوى النفس ، وأن النفوس الكاملة هى التى تتمسك بالمثل العليا والخير الخالص ، وأن النفس خالدة بعد بطلان الجسم بالموت .

وله آراء فى الثواب والعقاب والجن وغيرها من الغيبيات لا تتفق مع ماقرره علماء التوحيد والأصول ، واعتسف ابن سينا فى تفسير النصوص القرآنية ليحملها على موافقة آرائه فى تلك القضايا(٣) .

---

(١) عيون الأنباء ج٢ ص ١٠ .

(٢) لمزيد من التفصيل راجع تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام للدكتور محمد على أبو ريان - دار النهضة بيروت .

(٣) انظر ابن سينا بين الدين والفلسفة تأليف حموده غرابه مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٢م.

وآراؤه مبثوثة فى كتبه ، وفى تراثه الأدبى كذلك ، فقد كان ابن سينا فيلسوفًا وطبيبًا وشاعرًا وأديبًا ، وله فى مجال الأدب نثر فلسفى وشعر كثير ، وله كذلك ثلاث أقاصيص هى : (حى بن يقظان) و (سلامان وأبسال) و (رسالة الطير) وفى الأقصوصة الأولى يرمز ابن سينا بحى بن يقظان إلى العقل الفعال ، ويتحدث فيها حديثا فلسفيًا قصصيا عن النفس الإنسانية ومشكلاتها .

كما رمز فى الثانية بأشخاص القصة إلى أمور فلسفية ، فأبسال رمز للعقل أو درجة العرفان ، وسلامان رمز للنفس الناطقة . أما رسالة الطير ، فإن ابن سينا يستهلها بدعوة إخوانه الفلاسفة إلى الإخلاص والسمو إلى الكمال ، ويتصور نفسه طائرًا مع طائفة من الطير تنبه لها الصيادون ، فنصبوا لها الشباك ، وسرعان ماوقع فيها الطير ، وتشبثت بأجنحته وأرجله، فاستسلم للهلاك ، وشغل كل طائر عن أخيه بأمره ، ونسى الطير حريته المسلوبة كما نسيت الأرواح عالمها العلوى الذى هبطت منه وحلت فى الأبدان . وتتمكن بعض الطيور من تخليص رؤوسها وأجنحتها من الشباك ، لكن أرجلها تظل عالقة بها ، ويجمع الطير قوته ، ويتوجه نحو الملك يرجوه أن يخلصه من الأسر وأن يفك عنه الشباك ، لكن الطير يدرك أن بينه وبين الملك ثمانية جبال عليه أن يجوزها ليصل إلى الملك ، فيجاهد فى سبيل قطع هذه الجبال والشباك ممسكة به إلى أن يصل إلى الملك الذى كان جماله باهرًا للطير ، ولما تضرع إلى الملك طالبًا منه فك أسره ، أخبره الملك أنه لن يفك هذه الشباك إلا عاقدوها ، ويرسل مع الطير رسولا إليهم ليفكوا عنه الشباك التى قيدوه بها فانصرف الطير من عند الملك مسرورًا بذلك[1] .

---

(١) راجع عصر الدول والإمارات ص ٦٤٤ .

وواضح أن هذه القصة أيضاً ترمز إلى الأرواح التى سجنت فى أجسادها ، وتصور شوقها إلى الانعتاق من المادة ، والرقى إلى عالمها الأعلى ، ويبدو أن الجبال الثمانية هى مقامات المجاهدة ومدارج السلوك التى يسلكها المتصوفة للوصول إلى محبة الله - عز وجل - ولأن الأرواح لا تتخلص من سجن البدن تخلصاً نهائياً إلا بالموت ، فإن الرسول فى القصة يرمز إلى ملك الموت الذى يخرج الأرواح من الأجساد بإذن الملك وهو الله عز وجل .

وهذه الفكرة - أعنى - تطلع الروح إلى الانعتاق من سجنها المادى الذى هو البدن ، وشوقها إلى الانطلاق فى عالمها العلوى هى التى قامت عليها قصيدة النفس لابن سينا التى مطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وقد بث فيها آراءه فى النفس ، وتحدث عن مبدأها ومعادها وتعجب من أحوالها وأطوارها .

واستطاع الفيلسوف الشاعر أن يختار لأفكاره الألفاظ الدالة الموحية ، وأن يصوغ قصيدته صياغة رقيقة محكمة ، وأن يرسم صوراً معبرة تبعث فى الأفكار الفلسفية الحركة والحياة ، فجاءت قصيدته لوحة تصور هذه النفس الإنسانية العجيبة المعقدة ، التى تمثل لغزاً محيراً، وسراً مستغلقا شغل طلاب المعرفة فى كل زمان ومكان .

فالنفس الإنسانية مجمع لكثير من الأمور المتناقضة، التى يصعب معها إدراك حقيقة هذه النفس ، فهى محجبة سافرة ، آنفة آلفة ، ناسية ذاكرة ،

عالمة جاهلة ... إلى آخر ماتتصف به النفس من تركيب معقد فسبحان من سواها فألهمها فجورها وتقواها .

يقول ابن سينا(1) :

هبطت إليك من المحل الأرفع	ورقـــــاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف	وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصـــلت على كره إليك وربما	كرهت فراقك وهى ذات تفجع
أنفـت وماأنست فلما واصلت	ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهودًا بالحمى	ومنازلا بفــراقها لم تـقنع

فالنفس تحن إلى عالمها الأعلى ، وهى دائمة الشوق إليه ، ولا يحول بينها وبين الذهاب إلى ذلك العالم غير الجسد الذى حبست فيه إلى أجل ، وكلما ذكرت عالمها بكت ، فإذا ماأذن لقفص الطين - أعنى الجسد - أن يتحطم بالموت ، فارقته فرحة جزلة بالرجوع إلى عالمها الأول :

تبكى إذا ذكرت ديارًا بالحمى	بمـــدامع تهـــمى ولما تـقطع
وتظل ساجعة على الدمن الـتى	درســـت بتكرار الرياح الأربـع
إذ عاقها الشرك الكثيف وصدها	قفص عن الأوج الفـسيح المربع
حتى إذا قرب المسير إلى الحمى	ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصـ	ـرت ماليس يدرك بالعيون الهجع
وغـدت مــفارقة لكل مــخلف	عــنها حليف الترب غير مشيع

---

(1) انظر عيون الأنباء ج٢ ص ١٠ .

وغدت تغرد فوق ذروة شـــاهق والـعلم يرفع كل من لم يـرفع

لكن ماالسر فى هبوط النفس من عالمها العلوى إلى الأرض لتقترن بالجسد ؟ ! إن كان الله – سبحانه – أرسلها لحكمة المعرفة التى تكتسبها من الحياة بعد التلبس بالجسد ... فلماذا يقضى على هذا الجسد بالموت سريعًا ، وتعود إلى عالمها مرة أخرى بعد وقت فى الأرض يسير وعمر فى الدنيا قصير، حتى كأنها برق أو مض ثم انطفأ ؟!

هكذا يتساءل ابن سينا متعجبا ، عاجزًا عن إدراك السر، سر النفس الإنسانية ، أو سر الحياة والموت ، والمبدأ والمعاد ، فيقول :

فلأى شئ أهبـــطت من شاهق	سام إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أرسلها الإله لحـــكمة	طويـت عن الفطن اللبيب الأروع
فهبوطها إن كان ضـــربة لازب	لتـــكون سامعة بما لم تـــسمع
وتـــعود عـــالمة بـــكل خفية	فى العـــالمين فخرقها لم يرقع
وهى التى قطع الزمان طريقها	حتى لقد غـــربت بغير المطلـع
فكأنها برق تـــألق بالحـــمى	ثـــم انطفا فكأنه لم يـــلمع

وخير النفوس وأفضلها فى رأى ابن سينا هى النفوس العارفة بذاتها كما يفهم من قوله(1) :

خير النفوس العارفات ذواتها	وحـــقيق كميات ماهياتها
وبـــم الذى حلـــت ومم تكونت	أعضاء بنيتها على هيئاتها

(1) عيون الأنباء ج٢ ص ١٥ .

وينصح بتهذيب النفس وترقيتها بالعلوم ، لتشرق بالحكمة ، ويستحق صاحبها أن يوصف بأنه حي ، فإذا لم تهذب بالعلوم أظلمت ، وكانت حياتها أشبه شئ بالموت ، فيقول [1] :

هذب النفس بالعلوم لترقى	وذر الكل فهى للكل بيت
إنما النفس كالزجاجة والعلم	سراج وحكمة الله زيت
فإذا أشرقت فإنك حى	وإذا أظلمت فإنك ميت

ولابن سينا أشعار أخرى كثيرة فى موضوعات متعددة، رواها ابن أبى أصيبعة ، منها قصائد طويلة تتعدد فيها الموضوعات على طريقة الشعر القديم ، ويبدؤها ببكاء الديار وحديث الحب والتحسر على الماضي، كقوله فى إحداها [2] :

قفا نجزى معاهدهم قليلا	نغيث بدمعنا الربع المحيلا
تخونه العفاة كما تراه	فأمسى لا رسوم ولا طلولا
لقد عشنا بها زمنا قصيرا	نقاسى بعدهم زمنا طويلا
وقفت دموع عينى دون سعدى	على الأطلال ماوجدت مسيلا
على جفنى لسعدى فرض دمع	أقمت له بـه قلبى كفيلا
عقدت لها الوفاء وإن عقدى	هو العقد الذى لن يستحيلا

وينتقل بعد هذه المقدمة الطللية إلى الحديث عن فضائله، والفخر بنفسه، والرد على من يعيبه أو يذمه .

(١) السابق .

(٢) عيون الأنباء ج٢ ص ١٣ .

وفى قصيدة أخرى يبكى ابن سينا الديار التى غيرتها الأحداث وأذهبت معالمها الأيام ، فلم يبق منها إلا رسمها ونؤيها اللذان يشبهان سر الحب فى قلبه وهو ماشبه به رسم الدار فى البقاء وعدم التغير والزوال- وصبره الذى شبه به النؤى فى التهدم والفناء ، ويشير إلى الأثافى التى خلفها الراحلون وراءهم فى الدار ، وقد اسود لونها لتشبه الحسرة المظلمة التى بقيت فى قلبه حزنا على فراق أحبته ، ولا أظن أن هذه الصور البدوية كان لها وجود فى حياة ابن سينا وهو الذى عاش حياته بين الحواضر العامرة والقصور الفاخرة ، بل هى مستمدة من الشعر الجاهلى ، وإن كان ابن سينا مقلداً فى الوقوع على هذه الصور ، فقد أضاف إليها من عنده هذه التشبيهات الجميلة التى سلك فيها سبيل تشبيه الحسى بالمعنوى إذ شبه الرسم بالسر ، والنؤى بالصبر ، وسفعة الأثفى بالحسرة ، فقال[1] :

ياربع نكرك الأحداث والقدم ... فصار عينك كالآثار تتهم

كأنما رسمك السر الذى لهم ... عندى ونؤيك صبرى الدارس الهدم

كأنما سفعة الأثفى باقية ... بين الرياض قطا جونية جثم

أو حسرة بقيت فى القلب مظلمة ... عن حاجة ماقضوها إذ هم أمم

ثم يتمنى ابن سينا أن تسعفه الأطلال بجواب يريحه من القلق والحيرة فيقول :

ليت الطلول أجابت من به أبدا ... فى حبهم صحة فى حبهم سقم

أو علها بلسان الحال ناطقة ... قد تفهم الحال مالا تفهم الكلم

---

(١) عيون الأنباء ج٢ ص ١١ .

ثم يتحدث عن غرور المرء بالأيام التى تنتقص من قوته وعمره، وعن نذير الشيب فى مقابل ماتعد به الآمال :

الشيب يوعد والآمال واعدة والمرء يغتر والأيام تنصرم

وينتقل بعد ذلك إلى الفخر بعلمه وأدبه والحط من شأن خصومه وحساده فيقول :

مالى أرى حكم الأفعال ساقطة

وأسمع الدهر قولا كله حكم

مالى أري الفضل فضلا يستهان به

قد أكرم النقص لما استنقص الكرم

جولت فى هذه الدنيا وزخرفها

عينى فألفيت دارًا ما بها إرم

وعن أهل زمانه الذين عاصروه يقول :

ليسوا وإن نعموا عيشًا سوى نعم

وربما نعمت فى عيشها النعم

الواجدون غنى العادمون نهى

ليس الذى وجدوا مثل الذى عدموا

خلقت بينهم وأيضا قد خلطت بهم

كرها فليس غنى عنهم ولا لهم

بـــأى مـــاثرة يـــنقاس بى أحـــد

بـــأى مـــكرمة تحـــكينى الأمـــم

وروح شعر المتبنى بادية فى هذا الفخر المسرف ، ويبدو أن ابن سينا كان ينظر إلى شعر المتنبى كثيراً ، خاصة فى فخره بعلمه وأدبه واعتزازه بعقله ، فإذا كان المتنبى يقول :

وما الدهـــر إلا مـــن رواة قصـــائدى

إذا قـــلت شـــعرًا أصبح الدهر منشدا[1]

فإن ابن سينا يقول :

أما البلاغة فاسألنى الخبير بها ... أنا اللسان قديمًا والزمان فم[2]

وكما قال المتنبى :

وإذا أتـــتك مذمتى من ناقص ... فهـى الشهادة لى بأنى كامل[3]

أخذ ابن سينا هذا المعنى فقال[4] :

عجبا لقوم يحسدون فـــضائلى ... مـــابين غـــيابى إلى عـــذالى

عتبوا على فضلى وذموا حكمتى ... واستوحشوا من نقصهم بكمالى

إنـــى وكيـــدهم وماعـــتبوا به ... كالطود يـــحقر نطحة الأوعـــال

---

(١) ديوان المتنبى بشرح البرقوقى ج٢ ص ٤ دار الكتاب العربى - بيروت .

(٢) العيون ج٢ ص ١٢ .

(٣) ديوان المتنبى ج٣ ص ٣٧٦.

(٤) العيون ج٢ ص ١٤ .

وإذا الفتى عرف الرشاد لنفسه ... هانت عليه ملامة الجهال

وفى شعره حديث عن الشيب يدلف منه إلى التأمل فى شئون الحياة والأحياء، كما فى قوله[1] :

أما أصبحت عن ليل التصابى ... وقد أصبحت عن ليل الشباب

تنفس فى عذراك صبح شيب ... وعسعس ليله فلم التصابى

شبابك كان شيطانا مريدا ... فرجم من مشيبك بالشهاب

إلى أن يقول :

كذا دنياك تراب لا نصداع ... مغالطة وتبنى للخراب

ويعلق مشمئز النفس عنها ... بأشراك تعوق عن اضطراب

فلولاها لعجلت انسلاخى ... عن الدنيا وإن كانت إهابى

عرفت عقوقها فسلوت عنها ... فلما عفتها أغريتها بى

بليت بعالم يعلو أذاه ... على صبرى ويسفل عن عتابى

وفى قصيدة أخرى يتحدث عن الشيب وحتمية إدراكه للإنسان، وضرورة التسليم والرضا به فيقول[2] :

هو الشيب لابد من وخطه ... فقوضه واخضبه أوغطه

أأقلقك الطل من وبله ... جرعت من البحر فى وسطه

وكم منك سرك غصن الشباب ... وريقا فلابد من حطه

(١) السابق ج٢ ص ١٠ .

(٢) العيون ج٢ ص ١٢ .

فلا تجزعن لطــريق سلــكت	كم ابنت غيرك فى وســطه
ولاتجشعن فما إن ينـــــال	من الرزق كل سوى قسـطه
وكم حــاجة بــذلـت نفسها	ففوتها الحرص من فرطــه

ولابن سينا أبيات كثيرة فى الخمر ، لكن يبدو أن الخمر فى شعره ليست هى الخمر الحسية ، بل هى رمز صوفى لمعرفة الله - عز وجل - ومحبته ، بدليل أنه يقرن ذكرها ببعض الإشارات الدينية ، على نحو ماجاء فى قوله[1] :

قـــم فاسقنيها قهوة كدم الطلا	ياصاح بالقدح الملا بين الملا
خمرًا تظل لها النصارى سجدًا	ولها بنو عمران أخلصت الولا
لـــو أنها يومًا وقد ولـعت بهم	قـــالت ألست بربكم قالوا بلى

وفى قوله[2] :

نزول اللاهـــوت فى ناسوتها	كنزول الشمس فى أبــراج يوح
قال فيها بعض من هام بـها	مثل ماقال النصارى فى المسيح
هـــى والـــكأس ومامازجـها	كـــأب مـــتحـــد وابـــن وروح

فذكر النصارى وبنى عمران والسجود واللاهوت والمسيح وغير ذلك من الرموز المتعلقة بالأديان يرجح أن تكون الخمر فى الأبيات السابقة رمزًا لمعرفة الله ومحبته ، وهو أمر شاع فى بيئة المتصوفة ، كما يرجح ذلك أيضًا

(١) السابق ج٢ ص ١٤.

(٢) السابق ج٢ ص ١٥ .

وصفها بالقدم والأولية فى قوله[1] :

شربنا على الصوت القديم قديمة ... لكل قديم أول هى أول

ولو لم تكن فى حيز قلت إنها ... هى العلة الأولى التى لا تعلل

وإن كنا لا نوافق على وصف الخمر بهذه الصفات حتى لو كانت رمزًا لمعرفة الله ومحبته ، فإن هذا الوصف يرجح أن تكون الخمر فى الأبيات ليست هى الخمر الحسية ، وهذه الهالة القدسية التى تحيط بها فى أبيات ابن سينا ، يستبعد أن يكون المقصود منها إطراء الخمر الحسية بدافع الهيام بها والتعلق بشربها ، فإذا أضفنا إلى ذلك ماعرف عن ابن سينا من أن الفلسفة عنده امتزجت بالتصوف ، وأنه يسمى الصوفى العارف ، ويقول عنه :

« إنه المتصرف بفكره إلى قدس الله مستديمًا لإشراق نور الحق على نفسه »[2] . أقول : إذا أضفنا ذلك إلى ماتقدم رجح أن يكون حديثه عن الخمر بهذه الطريقة سيرًا على نهج المتصوفة الذين يستخدمون ألفاظ الخمر والسكر والصحو وغيرها استخدامًا رمزيًا يشيرون به إلى مواجيدهم وأحوالهم فى محبة الله عز وجل .

بيد أن لابن سينا بيتين أشار فيهما إلى الخمر الحسية، ليس فى معرض الإطراء والمدح ، بل فى معرض التحذير من الانخداع بلذتها العاجلة الطارئة التى قد يفتن بها بعض الناس ويغفلون عن حقيقة ضررها،

---

(١) العيون ج٢ ص ١٥ .

(٢) عصر الدول والإمارات .

إذ يقول[1] :

أســـاجية الجفون أكل خـود سجاياها استعرن من الرحيق

هى الصهباء مخبرها عــدو وإن كـانت تناغى عن صديق

وله شعر ضمنه بعض الوصايا الطبية والوصفات العلاجية، ومما نسب إليه فى هذا المجال قوله[2] :

اجعــل غذاءك كــل يوم مرة واحذر طعاما قبل هضم طعام

واحفظ منيك مااستطعت فإنه مــاء الحـياة يراق فى الأرحام

ولقد شاع فى بيئة الفلاسفة والمنجمين القول بتـأثير الكواكب، وهو قول مرفوض بمقتضى العقيدة الإسلامية، إذ قد ورد النهى فى الحديث الشريف عن أن يقـول الناس « أمطرنا بنوء كذا » فـالمدبر للأمـور كلهـا هـو الله عـز وجل.

وبعض الفلاسفة يثبت أثر الكواكب مقرونًا بإذن الله - عز وجل - فلقد روى ابن أبى أصيبعة أبياتا لابن سينا وقال :

يقـال : إن هذه الأبيـات إذا قـيلت عند رؤية عطارد وقت شـرفـه فـإنها تفيد علمًا وخيرًا بإذن الله تعالى وهذه الأبيات هـى[3] :

عطارد قد والله طــال تـــرددى مساء وصبحًا كى أراك فاغنما

فها أنت فامددنى قوى أدرك المنى بها والعلوم الغامضات تكرمـا

---

(1) عيون الأنباء ج٢ ص ١٥ .

(2) وفيات الأعيان ج١ ص ٤١٩ .

(3) عيون الأنباء ج٢ ص ١٦ .

ووقنى المحـــذور والشر كـله   بأمر مليك خالق الأرض والسما

ولولا الشطر الأخير من البيت الثالث لكان هذا الكلام شركًا محضًا ، على أن طلب منح الخير ومنع الشر من الكوكب كما ورد فى الأبيات أمر لا تستريح له النفس المؤمنة على أية حال .

وهذه الأقوال ومايشبهها هى التى جعلت كثيرًا من الفلاسفة عرضة للاتهام بالزندقة والخروج عن الإسلام .

ومما يتعلق بهذا المجال أيضًا أنهم نسبوا إلى ابن سينا قصيدة فيما يحدث من الأمور والأحوال عند قران المشترى وزحل فى برج الجدى ، ويزعمون أن ماأخبر به فيها وقع ، وهى تتضمن إخبارًا بما وقع من سقوط بغداد فى أيدى التتار، وتدميرهم وإهلاكهم للحرث والنسل، إلى أن هزمهم قطز بجيش من أهل مصر سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وقد كان سقوط بغداد بعد وفاة ابن سينا بما يزيد على قرنين من الزمان . فهل كشف الغطاء عن ابن سينا ليعرف مايحدث بعد وفاته بأكثر من قرنين ؟

إن مثل هذا الكلام فى رأيى محض افتراء على ابن سينا، وليس له واقع إلا فى خيال القصاص، ولا يستطيع فيلسوف ولا منجم أن يخبر بما سيحدث فى العالم بعد يوم واحد فضلا عن مائتى عام وأكثر ، فذلك غيب لا يعلمه إلا الله عز وجل، القائل فى محكم كتابه « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ... » الآيتان[1] .

* * *

---

(١) سورة الجن آية ٢٦ ، وآية ٢٧ .

٣- السهروردى

هو أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك ، الملقب بشهاب الدين ، ولد سنة ٥٤٥ خمسمائة وخمس وأربعين تقريباً ببلدة سهرورد فى إقليم الجبال من بلاد إيران .

درس الفقه والتصوف والفلسفة ، وارتحل فى طلب العلم ولقاء العلماء ، وأكثر من التأليف حتى بلغت مصنفاته أكثر من أربعين كتاباً ، منها كتاب هياكل النور ، وكتاب المعارج ، والتلويحات ، والمطارحات ، وحكمة الإشراق كما ألف رسالة سماها (رسالة الغربة الغريبة) وهى على طريقة ابن سينا فى (رسالة الطير) إذ تناول فيها الحديث عن النفس ومايتعلق بها على طريقةالحكماء(١) .

وسلك السهروردى طريق التصوف الفلسفى ، وعلى الرغم من نقده للفلسفة والمنطق ، فإنه رأى أنهما ضروريان للمتصوف ، حتى يتعانق فى داخله العقل والقلب أو الذوق . وفى فكره الصوفى آثار من النحل الفارسية القديمة ، إذ يقسم العالم إلى عالمين ، هما عالم النور ، وعالم الظلمة ، ويرى أن جميع الموجودات انبثقت عن نور الأنوار بطريق الفيض الإلهى ، ويقول بوحدة الوجود ، ونظرية الحلول والاتحاد .

واتهم السهروردى بفساد العقيدة ، ولما ذهب إلى حلب أفتى علماؤها بإباحة قتله بسبب ماظهر لهم من سوء مذهبه ، وكان ذلك فى دولة الملك

---

(١) راجع وفيات الأعيان جـ٥ ص ٣١٢، وعيون الأنباء جـ٣ ص ٢٧٣، ط دار الفكر بيروت وعصر الدول والإمارات ص ٦٢٤ .

الظاهر صاحب حلب ابن السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وكان قتله سنة سبع وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب .

بيد أن من الناس من كان يعتقد فيه الصلاح وأنه من أهل الكرامات ، وأن إفتاء الفقهاء بقتله كان سببه الغيرة والحسد بعد أن ناظرهم وتفوق عليهم ، والله أعلم بحقيقة الأمر[1] .

وللسهروردى نثر بديع وشعر رائق ، فمن نثره قوله فى الدعاء :

« اللهم ياقيام الوجود وفائض الجود ، ومنزل البركات ، ومنتهى الرغبات ، منور النور ، ومدبر الأمور ، وواهب حياة العالمين ، امددنا بنورك، ووفقنا لمرضاتك ، وألهمنا رشدك ، وطهرنا من رجس الظلمات ، وخلصنا من غسق الطبيعة إلى مشاهدة أنوارك ، ومعاينة أضوائك ، ومجاورة مقربيك، وموافقة سكان ملكوتك ، واحشرنا مع الذين أنعمت عليهم من الملائكة والصديقين والأنبياء والمرسلين »[2]

ومن كلامه أيضًا :

« الفكر فى صورة قدسية ، يتلطف بها طالب الأريحية ، ونواحى القدس دار لا يطؤها القوم الجاهلون ، وحرام على الأجساد المظلمة أن تلج ملكوت السموات ، فوحد الله وأنت بتعظيمه ملآن ، واذكره وأنت من ملابس الأكوان عريان ، ولو كان فى الوجود شمسان لانطمست الأركان ، وأبى النظام أن يكون غير ماكان »[3] .

---

(١) وفيات الأعيان ج٥ ص ٣١٢ .

(٢) عيون الأنباء ج٣ ص ٢٧٨ .

(٣) الوفيات ج٥ ص ٣١٢ .

ويتضمن هذا الكلام دعوة إلى توحيد الله وتعظيمه فى إخلاص وتجرد ، وتقرير لوحدة الله، لأن تعدد الآلهة يفسد نظام الكون ، وفى ذلك اقتباس من قوله عز وجل :

{ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا } الأية[1] .

ومن الشعر المنسوب إلى السهروردى أبيات فى النفس تتضمن الأفكار التى وردت فى قصيدة النفس لابن سينا وتتحدث هذه الأبيات عن النفس حال فراقها للجسد ، وشوقها لمغناها القديم وعالمها العلوى ، وتصورها كالبرق الخاطف الذى انطوى وكأنه مالمع ، يقول[2] :

خلعت هياكلها بجرعاء الحمى

وصبت لمغناها القديم تشوقًا

وتلفتت نحو الديار فشاقها

ربع عفت أطلاله فتمزقا

وقفت تسائله فرد جوابها

رجع الصدى أن لا سبيل إلى اللقا

فكأنما برق تألق بالحمى

ثم انطوى فكأنه ماأبرقا

وعبر السهروردى عن فكرة الفناء والحلول والاتحاد فى قوله :

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم (٢٢) .

(٢) الوفيات ج٥ ص ٣١٢ .

وخفيت حتى قلت لست بظاهر وظهرت من سعتى على الأكوان[1]

وادعى أنه يفنى عن كل ماحوله ، ويغيب عن الوجود ، ويندمج بنور الله عـز وجل حـتى إنه فى هذه الحـال لا يدرى يمينه من يسـاره ، وذلك فى قـوله[2]:

أقول لجارتى والدمع جارى	ولى عزم الرحـيل عن الديار
ذرينـى أن أسير ولا تنوحى	فإن الشهب أشرفها السوارى
وإنى فى الظلام رأيت ضوءًا	كأن اللـيل بدل بالـنهار
ويبدو لى من الـزوراء برق	يذكرنـى بها قـرب المزار
إذا أبصرت ذاك النور أفنى	فما أدرى يمينى من يسارى

ومن شعره الصوفى قصيدة طويلة يناجى فيها الذات الإلهية ، مصوراً شوق روحه إلى الوصال ، وحنينها إلى القرب من حضرتها ، ويترحم على أمثاله من أصحاب العشق الإلهى الذين إن باحوا بأسرارهم سفكت دماؤهم وإن كتموها وشت بهم مدامعهم ، وكشفتهم أحوالهم ، فيقول[3] :

أبدًا تحن إلـيكم الأرواح	ووصالكم ريحانها والراح
وقلوب أهل ودادكم تشتاقـكم	وإلى لذيذ وصالكم ترتـاح
وارحمتـا للعاشقـين تـكلفوا	ستر المحبة والهوى فضاح
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم	وكـذا دماء البائحين تباح

(١) الوفيات ج٥ ص ٣١٢ .

(٢) عصر الدول والإمارات ص ٦٢٥ .

(٣) عيون الأنباء ج٣ ص ٢٧٨ .

وإذا هم كتموا تحــدث عنهم عند الوشاة المدمع السحاح

وبدت شواهد للســقام عليهم فــيها لمشكل أمرهم إيضاح

ثم يتضرع إلى محبوبه ، طالبًا منه الرضا والوصال فيقول[1] :

خفض الجناح لكم وليس عليكم للصب فى خفض الجناح جناح

فإلى لقاكم نفسه مشـــتاقة وإلى رضـــاكم طــرفه طماح

عودوا بنور الوصل من غسق الـ دجى فالهجر ليل والوصال صباح

ويصـور فرح العاشـقين وطربهم وسـرورهم فى حـضـرة النور ، عندما يغـيبـون عن ذواتهم ، وتكشف الحـجب والأسـتـار لينـعـمـوا برؤية الأنوار ، فيقول[2] :

صافاهم فصفوا له فـــقلوبهم فى نورها المشكاة والمصباح

وتمتعوا فالوقت طاب بـــقربكم راق الشراب ودارت الأقداح

حضروا وقد غابت شواهد ذاتهم فتـهتكوا لما رأوه وصاحوا

أفناهم عنهم وقد كشـــفت لهم حجب البقا فتلا شت الأرواح

وفى ذكره للنور والمشكاة والمصبـاح اقـتبـاس من الآية الكريمة : { الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء

---

(١) المصدر السابق .

(٢) عصر الدول والإمارات ص ٢٢٦ .

ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم }[1]

وهو يريد أن يقول : إن قلوب العاشقين تشرق بنور الله فيرون مالا يرى غيرهم على حد قول بعضهم فى هذا المعنى :

قلوب العارفين لها عيون   ترى مالا يراه الناظرون

وعن الخمر الصوفية التى يرمز بها المتصوفة إلى حالة الغياب عن الوجود والتمتع بالشهود يقول[2] :

قم يانديم إلى المدام فهاتها   فى كاسها قد دارت الأقداح

من كرم إكرام بدن ديانة   لا خمرة قد داسها الفلاح

ويعتذر السهروردى عن العشاق الذين يغلبهم الهوى فيبوحون بأسرارهم ، ويقول إنهم سمحوا بأنفسهم لله لما دعاهم إلى بابه وجذبهم إلى نوره ، فيقول[3] :

ياصاح ليس على المحب ملامة   إن لاح فى أفق الوصال صباح

لا ذنب للعشاق ان غلب الهوى   كتمانهم فنما الغرام فباحوا

سمحوا بأنفسهم ومابخلوا بها   لما دروا أن السماح رباح

ودعاهم داعى الحقائق دعوة   فغدوا بها مستأنسين وراحوا

ركبوا على سنن الوفا فدموعهم   بحر وشدة شوقهم ملاح

والله ماطلبوا الوقوف ببابه   حتى دعوا وأتاهم المفتاح

---

(١) سورة النور آية (٣٥) .

(٢) الوفيات ج٥ ص ٣١٢ .

(٣) المصدر السابق .

لا يطربون لغير ذكر حبـيبهم أبدًا فكل زمــانهم أفراح

ولقد وردت فى هذه القصيدة مصطلحات كثيرة استخدمت فى بيئات التصوف للدلالة على الأحوال والمقامات التى يعرفها أهل الطريق ، ومن هذه المصطلحات :

(الوصـال ، والهـجر ، والشوق ، والسر ، والبـوح ، والرضـا ، والمدام ، والأقداح ، والشراب ، والصفاء ، والوفاء ، والسماح ، والرباح ، والأنس ، والطرب ، والفرح ، والغناء ، والبقاء ، وغيرها) .

كما حملت القصيدة بعض الأفكار التى جاءت إلى بيئات التصوف من الفلسفات القديمة والنحل البائدة كالحلول والاتحاد ، وأصحاب التصوف السنى ينكرون هذه الأفكار ، كما يرفضها الفقهاء ، ويبطلون القول بها ، ويؤثمون ممعتنقيها استنادًا إلى ظواهر النصوص وأحكام الشريعة ، ونتج عن ذلك القول بكفر عديد من المتصوفين .

وللسهروردى قصيدة أخرى يقال إنه أنشدها عند وفاته ، وفيها يبسط رأيه فى الموت ، ويصور روحه عصفورًا طار عن قفصه ، وانعتق من حبسه، وانتقل إلى الرحاب الأوسع ، فصار يناجى الملأ ، ويرى الله عيانًا ، يقول[1]:

قل لأصــحاب رأونى ميتا فــبكونى إذ رأونى حزنا

لا تظـنوا بأنـى ميـت ليـس ذاك الميت والله أنا

أنا عـصفور وهــذا قفصى طـرت عنه فتخلى رهنا

---

(١) عيون الأنباء ج٣ ص ٢٧٩ .

وأنـــا اليـــوم أناجى ملا ... وأرى اللــه عـــيانًا بهنا

فاخلعوا الأنفس عن أجسادها ... لـــتروا الحق حقًا بينا

لا ترعكم سكرة الموت فـــما ... هـو إلا انـــتقال من هنا

ثم يتحدث عن وحدة الوجود ، واعتقاده بأنه هو والناس وحدة واحدة ، تتحد فى عنصر الأرواح ، وعنصر الجسد ، وأنه ماكان من خير ولا شر إلا والجميع شركاء فيه بناء على هذا التوحد فيقول[1] :

عنـــصر الأرواح فينا واحد ... وكـذا الأجسام جسم عمنا

ماأرى نفسى إلا أنـــتم ... واعـــتقادى أنكم أنتم أنا

فمتى ماكان خيرًا فـــلنا ... ومـــتى ماكان شرًا فبنا

فارحمونى ترحموا أنفسكم ... واعـــلموا أنـكم فى إثرنا

وعلى الرغم من هذا المسلك الصـوفى الذى عـرف به السـهـروردى ، ومـاورد فى أخبـاره عن زهده فى الدنيـا ، فـإن ابن أبى أصـيـبعـة أورد له أبياتًا تدعو إلى الفوز بنعيم الدنيا ، واقتناص لذاتها ، والتحذير من تفويت ذلك النعيم العاجل وانتظار نعيم الآخرة !! وأول هذه الأبيات[2] :

فز بالنعيم فإن عـمرك ينفد ... وتـغنم الدنيا فليـس مخلد

وإذا ظفرت بلذة فانهض لها ... لا يمنعنك عن هـــواك مـفند

ولست أدرى كيف يقول السهروردى مثل هذا الشعر الذى يناقض دعوة التصوف ومسلكه .

---

(١) المصدر السابق الصفحة نفسها .

(٢) عيون الأنباء ج٣ ص ٢٧٨ .

٤- الإمام فخر الدين الرازى

هو الإمام فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر الحسين الرازى .

ولد بالرى وكان أبوه عالمًا فقيهًا ، يدرس فى الرى ، ويخطب لأهلها ، فنشأ أبو عبد الله نشأة دينية علمية ، وتبحر فى علوم الشرع واللغة والفلسفة ، فذاع صيته ، وطبقت شهرته الآفاق ، وعرف بعلمه وورعه .

قال ابن أبى أُصيبعة عنه :

« كان إذا ركب يمشى حوله ثلثمائة تلميذ فقهاء ، وكان شديد الحرص جدًا فى سائر العلوم الشرعية والحكمية ، جيد الفطرة ، حاد الذهن ، حسن العبارة ، كثير البراعة ، قوى النظر فى صناعة الطب ومباحثها ، عارفًا بالآداب ، وله شعر بالفارسى والعربى »(١) .

وتدل مصنفاته على أنه كان موسوعى المعرفة ، فقد ألف فى كل العلوم التى كانت معروفة فى عصره تقريبًا ، وأشهر مصنفاته تفسير القرآن الكريم (مفاتيح الغيب) .

وله فى علوم الشرع كتاب المحصول فى أصول الفقه ، ونهاية العقول فى دراية الأصول ، ولوامع البينات فى شرح أسماء الله تعالى والصفات ، وكتاب عصمة الأنبياء ، وكتاب القضاء والقدر ، ورسالة فى النبوات ، وفى علوم اللغة شرح مفصل الزمخشرى فى النحو ، وشرح نهج البلاغة ، ونهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ، وشرح سقط الزند ، وفى التاريخ والسير ،

---

(١) راجع عيون الأنباء ج٢ ص ٢٣ ط الوهبية .

كتاب فضائل الصحابة ، ومناقب الشافعى ، وفى علوم الطب والفلسفة ، كتاب الأشربة ، ومسائل فى الطب ، وكتاب التشريح من الرأس إلى الحلق ، وشرح كليات القانون ، ولباب الإشارات ، والإنارات فى شرح الإشارات ، وعيون الحكمة ، والمباحث المشرقية ، وكتاب فى الملل والنحل ، وكتاب فى إبطال القياس ، ومن كتبه التى ألفها بالفارسية : الرسالة الكمالية فى الحقائق الإلهية ، وكتاب تعجيز الفلاسفة .

واجتمع له مع كل هذا العلم موهبة التعبير والبيان نثرًا وشعرًا ورزقه الله إيمانًا ويقينًا وورعًا وتواضعًا ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وللإمام الرازى وصية أملاها فى مرضه الذى مات فيه تدل على تقواه وحسن ظنه بالله ، كما تدل على قدرته البيانية وموهبته الأدبية ، وفيها يقول(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . يقول العبد الراجى رحمة ربه ، الواثق بكرم مولاه محمد بن عمر بن الحسين الرازى ، وهو فى آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، وهو الوقت الذى يلين فيه كل قاس ، ويتوجه إلى مولاه كل آبق ، إنى أحمد الله تعالى بالمحامد التى ذكرها أعظم ملائكته فى أشرف أوقات معارجهم ، ونطق بها أعظم أنبيائه فى أكمل أوقات مشاهداتهم ، فأحمده بالمحامدالتى تستحقها ألوهيته - عرفتها أم لم أعرفها - لأنه لا مناسبة للتراب مع جلال رب الأرباب ، وأصلى على الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين وجميع عباد الله الصالحين ، ثم أقول بعد ذلك اعلموا إخوانى فى الدين وأخدانى فى طلب اليقين أن الناس يقولون إن

---

(١) عيون الأنباء ج٢ ص ٢٧ .

الإنسان إذا مات انقطع تعلقه عن الخلق ، وهذا العام مخصوص من وجهين : الأول أنه إن بقى منه عمل صالح صار ذلك سبباً للدعاء له ، والدعاء له أثر عند الله ، والثانى مايتعلق بمصالح الأطفال والأولاد والعورات وأداء المظالم والجنايات .

أما الأول : فاعلموا أنى كنت رجلا محباً للعلم فكنت أكتب فى كل شئ شيئًا لا أقف على كمية وكيفية ، سواء أكان حقًا أو باطلا أو غثًا أو ثمينًا إلا أن الذى نظرته فى الكتب المعتبرة أن هذا العالم المحسوس تحت تدبير مدبر منزه عن مماثلة المتحيزات والأعراض ، وموصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة ، ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن العظيم لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ، ويمنع عن التعمق فى إيراد المفارضات والمناقضات ، وماذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل فى تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية ، فلهذا أقول : كل ماثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء فى القدم والأزلية والتدبير والفعالية ، فذاك هو الذى أقول به ، وألقى الله تعالى به ، وأما ماانتهى الأمر فيه إلى الدقة والغموض ، فكل ماورد فى القرآن والأخبار الصحيحة المتفق عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد فهو كما هو ، والذى لم يكن كذلك أقول : ياإله العالمين ، إنى أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين ، فذلك مامر به قلمى أو خطر ببالى ، فأستشهد علمك ، وأقول :

إن علمت منى أنى أردت به تحقيق باطل أو إبطال حق فافعل بى ماأنا أهله ، وإن علمت منى أنى ماسعيت إلا فى تقرير مااعتقدت أنه هو الحق

وتصورت أنه هو الصدق ، فلتكن رحمتك مع قصدى لا مع حاصلى ، فذاك جهد المقل ، وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع فى الزلة ، فأغثنى وارحمنى ، واستر زلتى ، وامح حوبتى ، يامن لا يزيد ملكه عرفان العارفين ، ولا ينتقص بخطأ المجرمين .

وأقول : دينى متابعة محمد سيد المرسلين ، وكتابى هو القرآن العظيم ، وتعويلى فى طلب الدين عليهما ، يا سامع الأصوات ، ويامجيب الدعوات ، ويامقيل العثرات ، وياراحم العبرات ، وياقيام المحدثات والممكنات ، أنا كنت حسن الظن بك ، عظيم الرجاء فى رحمتك ، وأنت قلت أنا عند ظن عبدى بى ، وأنت قلت أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، وأنت قلت وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، فهب أنى ماجئت بشئ فأنت الغنى الكريم ، وأنا المحتاج اللئيم ، وأعلم أنه ليس لى أحد سواك ، ولا أجد محسنًا سواك ، وأنا معترف بالزلة والقصور والعيب والفتور ، فلا تخيب رجائى ، ولا ترد دعائى ، واجعلنى آمنًا من عذابك قبل الموت ، وعند الموت ، وبعد الموت ، وسهل على سكرات الموت ، وخفف عنى نزول الموت ، ولا تضيق على بسبب الآلام والأسقام ، فأنت أرحم الراحمين »[1] .

وهذه الوصية تبين منهج الرازى فى البحث والدرس ، وهو منهج لم يفارقه اليقين الكامل بالله عز وجل فى أى مرحلة من مراحله ، ولم ينجرف صاحبه إلى الغرور بعقله أو الانخداع بما كتبه غيره من فلاسفة ومتكلمين ، وعصمته ثقته فى القرآن الكريم واهتداؤه به من الوقوع فى مضايق الشك والحيرة .

---

(١) عيون الأنباء ج٢ ص ٢٧ .

والأشعار التى تنسب إليه لاتجافى روح الإيمان بالله وتنزيهه وحسن اليقين به ، وتخلو مما عهد فى شعر بعض الفلاسفة من تمرد وشك .

ومن شعره أبيات ينزع فيها منزع التأمل فى الوجود والحياة وأقدار الله - عز وجل - فيهما ، ويرى أن نهاية العقول هى العجز ، وأن أكثر سعى الناس ضلال ، والدنيا أذى ووبال ، والأرواح محبوسة فى أجسادنا ، وقدر الفناء ينتظر جميع الخلق . يقول[1] :

نهاية إقدام العقول عقال	**وأكثر سعى العالمين ضلال**
وأرواحنا فى عقلة من جسومنا	**وحاصل دنيانا أذى ووبال**
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	**سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا**
وكم قد رأينا من رجال ودولة	**فبادوا جميعًا مسرعين وزالوا**
وكم من جبال قد علت شرفاتها	**رجال فزالوا والجبال جبال**

وفى أبيات أخرى يتحدث عن سمو غايته وعلو همته واحتقاره للدنيا بعد أن أيقن أنها فانية مرتحلة ، فيقول[2] :

فلو قنعت نفسى بميسور بلغة	**لما سبقت فى المكرمات رجالها**
ولو كانت الدنيا مناسبة لها	**لما استحقرت نقصانها وكمالها**
ولا أرمق الدنيا بعين كرامة	**ولا أتوقى سوءها واختلالها**
وذاك لأنى عارف بفنائها	**ومستيقن ترحالها وانحلالها**

---

(١) المصدر السابق ص٢٨.

(٢) عيون الأنباء ج٢ ص ٢٨ .

ويتحدث عن مصير الأرواح بعد أن تفارق الأجساد ، مفوضاً الأمر لله في الحكمة من الخلق ، مقرراً أنه ليس في خلقه عبث ، فيقول[1] :

أرواحنا ليس تدرى أين مذهبها   وفي التراب توارى هذه الجثث

كـــون يـــرى وفناء جاء يتبعه   الله أعـــلم مافى خلقه عبث

وللإمام الرازى قصيدة فى مدح الأمير علاء الدين على خوارزم شاه ، يبدو أن الدافع إليها مابذله الأمير من أجل الدين وتوطيد أركانه إذ يقول مطلعها[2] :

الدين ممدود الرواق موطد   والـكفر محلول النطاق مبدد

بعد علاء الدين والملك الذى   أدنى خصائصه العلا والسؤدد

ثم يصفه بالشجاعة والكرم والجد فى سبيل المجد ، فيقول :

شمس يشق جبينه حــجب السما   والـليل قارى الدجنة أسود

هو فى الجحافل إن أثير غبارها   أســد ولكن فى المحافل سيد

فإذا تصدر للــسماح فــإنه   فى صحن راحته الخضم المزبد

وإذا تمنطق للــكفاح فإنه   فــي طى لأمــته الهزبر الملبد

بالجــهد أدرك ماأراد من العلا   لا يــدرك العلياء من لا يجهد

وتبلغ هذه القصيدة ستة عشر بيتاً ، دعا فى نهايتها للممدوح بطول الحياة ، وفى أبياتها مبالغة مسرفة كما فى قوله : ..... أدنى خصائصه

---

(١) السابق ص ٢٩ .

(٢) السابق ص ٢٩ .

العلا والسؤدد فإذا كان العلا والسؤدد أدنى خصائصه فماذا يكون أعلاها؟!

وكما فى قوله :

ملك البلاد بجده وبجهده ... فأطاعه الثقلان فهو مسود

وللرازى أشعار بالفارسية ، وذلك يدل على أصالة موهبته الأدبية ، التى مكنته من إبداع الشعر فى لغتين ، وقد توفى - رحمه الله - ببلدة هراة ، أول شهر شوال سنة ست وستمائة .

* * *

الفصل الخامس

الفلاسفة الشعراء

فى الشام

* * *

١- عبيد الله الباهلى

هو أبو الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلى ، من أكبر الأطباء الذين ظهروا فى بلاد الشام ، رحل إلى بغداد والبصرة ، وعاد إلى دمشق ، وأقام بها إلى أن أدركته المنية سنة تسع وأربعين وخمسسمائة[1] .

ولبراعته فى الطب ، دبج فيه الشعراء المدائح ، مشيدين بمهارته فى مداواة المرضى على نحو مايقول أبو الفضل الملحى[2] :

إذا ماجـزى الله امرأ بـفعاله
فـجازى الأخ البر الحكيم أبا الحكم

هو الفيلسوف الفرد الفاضـل الذى
اقـر له بالحكمة العرب والعجم

يدبر تـدبير المسيح مريضه
فـلو رآه بقراط زلت به القدم

والإشارة إلى المسيح - عليه السلام - وردت فى الأبيات لأن من معجزاته التى أيده الله بها شفاء المرضى وإبراء الأكمه والأبرص. أما بقراط فهو أبو الطب عند اليونان الأقدمين ، وفى ذكرهما هنا رفع لمنزلة أبى الحكم وإثبات لمهارته كما يرى مادحه .

---

(١) عيون الأنباء ج٣ القسم الثانى ج٢٤٠ ط دار الفكر بيروت .

(٢) عيون الأنباء ج٣ ص ٢٤١ .

وكان أبو الحكم إلى براعته فى الطب شاعراً مكثراً ، وأكثر ماروى له من شعر يدور حول المدح والهجاء والسخرية .

وفى مدائحه يسير على النهج الموروث فى بناء القصيدة ، فيبدؤها بالغزل ووصف شوقه إلى المحبوبة ، وذكر ماألم به بسبب البعد والفراق ، ثم يتخلص إلى المديح ، وقد يصف الصحراء التى جازها فى رحلته إلى الممدوح ، والناقة التى أوصلته إلى بابه .

وقد سار على هذا النهج فى قصيدة مدح بها مؤيد الدين ، أبا الفوارس ابن الصوفى أحد رؤساء دمشق فى عهده ، فقال[1] :

رقت لما بى إذ رأت أوصابى ... وشكت فقصر وجدها عما بى

ماضر ياذات اللمى الممنوع لو ... داويت حرجوى برضاب

من هائم فى حبكم متقنع ... بمرور طيف أو برد جواب

إن تسعفى بالقرب منك فإنما ... تحيين نفساً آذنت بذهاب

لا تنكرى إن بان صبرى بعدكم ... واعتادنى ولهى لعظم مصابى

فالصبر فى كل المواطن دائماً ... مستحسن إلا عن الأحباب

هيهات أن يصفو الهوى لمتيم ... لابد من شهد هناك وصاب

مالى وللحدق المراض تذيبنى ... أترى لحينى وكلت بعذابى

وكذا العيون النجل قدما لم تزل ... من شأنها الفتك بالألباب

والحق أن هذه المقدمة الغزلية غاية فى الرقة واللطف ، واشتملت على

---

(١) السابق ص ٢٤٣ .

معان بديعة وصور جميلة ، فقد أخبر بأن محبوبته رقت لحاله لما رأت ماألم به من آلام الشوق وتباريح الحب بعد أن تيم بها ونفد صبره على بعده عنها ، فكادت نفسه تذهب ، ولن يمسك الحياة على نفسه إلا قرب المحبوبة منه ، وهو يقر بأن اللذة الصافية فى الحب ضرب من المستحيل ، فلابد فيه من شهد وصاب ، ويلوم نفسه على تعلقه بالعيون النجل التى من شأنها الفتك بالقلوب والعقول .

ثم يحسن التخلص من الغزل إلى المديح بقوله :

مالى وحظى لاينى متباعدًا	أدعو فلا أنفك غير مجاب
لولا رجاء أبى الفوارس لم أزل	مابين ظفر للخطوب وناب

وفى قصيدة أخرى مدح بها الرئيس جمال الدولة أبا الغنائم ، وهو أخو أبى الفوارس اتبع المنهج نفسه ، فبدأ قصيدته بمقدمة غزلية ضمنها معانى قريبة من المعانى السابقة ، وصرح فيها باسم المحبوبة (ليلى) وقد يكون هذا الاسم حقيقيًا ، وقد يكون رمزيًا ، واسم ليلى ذو رصيد كبير فى شعر الغزل منذ العصر الجاهلى .

قال أبو الحكم[1] :

سواء علينا هجرها ووصالها	إذا نكثت يومًا ورثت حبالها
ومابرحت ليلى تجود بوعدها	ويمنع منا بذلها ونوالها
ويطمعنا ميعادها فى دنوها	ولا وصل إلا أن يزور خيالها
أمامنك إلا عذرة وتعلل	لطال علينا عذرها واعتلالها

---

(١) العيون ج٣ ص ٢٤٤ .

سقام بجسمى من جفونك أصله | وقوة عشق نقص جسمى كمالها
فإن تسعفى صبا يكن لك أجره | بقربك يامن شف جسمى زيالها
وماذكرتك النفس إلا تفرقت | وعاودها من بعد هدى ضلالها
إذا قلت أنساها على نأى دارها | تصور فى عينى وقلبى مثالها

ثم انتقل من غير تمهيد إلى ذكر الصحراء التى قطعها فى رحلته إلى الممدوح ، ووصف الناقة التى حملته إليه فقال :

ودوية تردى المطايا تنوفة | يحار القطا فيها إذا خب آلها
قطعت بفتلاء الذراعين عرمس | أمون قراها غير باد كلالها
تؤم بناربع المسلم حيث لا | يخيب لها سعى وينعم بالها
ولولا جمال الملك ماجشتها ولا | ترامت صحاريها بنا ورمالها
إلى أسرة لا يجهل الناس قدرها | ويحمد بين العالمين فعالها

وفى قصيدة ثالثة مزج بين حديث الهوى والغزل ووصف الخمر ، وهى فى مدح عز الدولة ابن الصوفى ، فقال[1] :

دعابك داعى الهوى فاستجب | وقصر عتابك عمن عتب
فما العيش إن غيض ماء الشبـ | ـاب ولم يقض من طرفيه أرب
وباكر معتقة زانها | مرور الليالى بها والحقب
كأن على كأسها لؤلؤا | إذا مااستدار عليها الحبب

---

(١) العيون ج٣ ص ٢٤٦.

يـــطوف بها بابـــلى اللحاظ لذيذ المقبل عـــذب الشنب

يقـــول الذى راقه حســـنها أذى الخـمر من خده يجتلب

وإلا فـــــمن أين ذا الاحمرار وهـــذا الصفاء لبنت العنب

وفى وصف الأسنان والشفاه والبنان قال(١) :

ترى دراً يحيط بها عـــــقيق إذا أبدت ثناياها العذابا

ومازان الخـضاب لها بـــنانا ولـــكن كفها زان الخضابا

وقال فى وصف العذاب الذى يلاقيه المحبون(٢) :

ويح المحبين ليت لاخـــــلقوا مابرحوا فى العذاب مذ عشقوا

ولا رجـــوا راحـــة ولا فرحا إلا وســـــدت عـــليهم الطرق

وفى عنائه وحزنه وسقامه بسبب الحب قال(٣) :

ألا يامن لـــــصب مـــستهام مـــعنى لا يفـــيق من الغرام

وكيف يفيق مـــــحزون كـــئيب أضر بجـــسمه طول السقام

ويرد على من عيرته بانحناء الظهر وارتعاش الأطراف بقوله(٤) :

قلت لها إذ عـــيرتنى ضنى مع انحناء الظهر والارتعاش

لا تهزئى أن وهنت أعظـمى حبك منها داخل فى المشاش

---

(١) السابق ص ٢٥٢ .

(٢) السبق ص ٢٥١.

(٣) العيون ج٣ ص ٢٥١ .

(٤) السابق ص ٢٥٢ .

ويبدو أن حديث الغزل والخمر ومايتعلق بهما من اللهو فى شعر أبى الحكم مرده إلى حياة الترف ، ومجالس المتعة والشراب التى كثرت فى بيئة الشام وغيرها إبان ذلك العصر ، وقد انغمس فيها أبو الحكم إلى أذنيه ، حتى إن ابن أبى أصيبعة يروى هذه الحادثة عنه فيقول(١) :

« خرج ليلة وهو سكران من دار زين الملك أبى طالب بن الخياط ، فوقع وانشج وجهه ، فلما أصبح زاره الناس يسألونه : كيف وقع ، فكتب هذه الأبيات وتركها عند رأسه ، فكان إذا سأله إنسان يعطيه الأبيات يقرؤها :

وقعت على رأسى وطارت عمامتى
وضاع تمسكى وانبطحت على الأرض

وقمت وأسراب الدماء بلحيتى
ووجهى وبعض الشر أهون من بعض

قضى الله أنى صرت فى الحال هتكة
ولا حيلة للمرء فيما به يقضى

ولا خير فى قصف ولا لذاذة
إذا لم يكن سكر إلى مثل ذا يفضى

وله أبيات أكثر تهتكًا من ذلك ، وسمى ديوان شعره (ديوان نهج الوضاعة)(٢)

---

(١) عيون الأنباء ج٣ ص ٢٤٢ .

(٢) السابق ص ٢٥٦ .

كما يبدو أن روح السخرية والتفكه التى طبع عليها جعلته يظهر هذا التهتك ويصوره فى شعره .

ومع ماعبر عنه من وضاعة ادعى أنه نقى الثوب طاهر النفس والعرض، وذلك فى قوله [1] :

ألا إن شرب الراح من أوكد الفرض

على الورد والريحان والنرجس الغض

وكل امرئ أعطى الوضاعة حقها

فذاك فى عيش لذيذ وفى خفض

ومهما يكن بى دائمًا من دعابة

فإنى نقى الثوب والنفس والعرض

وتظهر روح السخرية التى انطبع عليها أبو الحكم ظهورًا واضحًا فى شعر الهجاء الذى روى له ، وكثيرًا ماكان يسوق هجاءه فى صورة المراثى ، على نحو مانجده فى هجائه للأديب نصير الحلبى إذ يقول[2] :

ياهذه قومى اندبى — مات نصير الحلبى

يرحمه الله لقد — كان طويل الذنب

قد ضجت الأموات — فى نكهته فى الترب

وودهم لو عوضوا — منه بكلب أجرب

(١) العيون ج٣ ص ٢٥١ .

(٢) العيون ج٣ ص ٢٥٣ .

ومنـــكر يـــقول ذا | أوضــــع ميت مربى
ماضم بطـــن الأرض بـ | ـين شـــرقها والمغرب
أخـــبث منه طـــينة | فـــى عجمها والعرب
ياقـــوم ماأنـــجسه | نـــصبا على التعجب
أوصــــافه من فحشه | مســـطورة فى الكتب
وقـــوله لمنـــكر | أســـرفت يامـعذبى
أمــــا علــمت أننى | شـــيخ من أهل الأدب

وسلك هذا المسلك الذى يفيض سخرية فى هجاء طبيب يهودى كان يلقب بـ (المفشكل) ، فقال على سبيل المرثية أيضًا[1] :

ألا عد عن ذكرى حبيب ومنزل | وعرج على قبر الطبيب المفشكل
فيارحمة الله استهينى بقبره | وكونى عن الشيخ الوضيع بمعزل
ويامنكرًا جود -هديت- قذاله | بمـقنعة واصقله صقل السجنجل
وكبكبه فى قعر الجحيم بوجبة | كجلمود صخر حطه السيل من عل
لقد حازذاك اللحد أخبث جيفة | وأوضـــــع ميت بين ترب وجندل
سأسبل من بطنى عليه مدامعًا | وأورده مـــن مائها شر منهل

وقد ضمن قصيدته هذه كثيرًا من كلام امرئ القيس فى معلقته :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل | بسقط اللوى بين الدخول فحومل

---

(١) العيون ج٣ ص ٢٥٢ .

ولأبى الحكم أرجوزة طويلة تبلغ واحداً وثمانين بيتاً ، تفيض بروح السخرية والفكاهة أيضاً ، وقد سماها (معرة البيت) وفيها يعرض ألواناً من المفارقات التى تحدث من الضيف فى الولائم والدعوات ، وتتسبب فى كثير من الحرج لصاحب الدار ، ومنها مايبديه بعضهم من عيب الطعام أو ذمه ، ومايفعله أكثرهم من إسراف فى الأكل والشرب ، وماينتج عن الوليمة من تلويث للفرش والأثاث ، ناهيك عن المفاسد التى تحدث إذا قدمت فى الوليمة الخمر ، فشرب القوم ، ودارت رءوسهم ، وغابت عن الوعى عقولهم ، فارتكبوا مالا يليق ، ووقعوا فى غير المباح ، وأصبح صاحب الدار مسئولا عن كل جرائرهم ملوماً على كل مصائبهم .

تقول الأرجوزة[1] :

معرة البيت على الإنسان	تطرأ بلا شك من الإخوان
فاصغ إلى قول أخى تجريب	يأتك بالشرح على ترتيب
جميع مايحدث فى الدعوات	وكل مافيها من الآفات
فصاحب الدعوة والمسره	لابد أن يحتمل المضره
أولها لابد من ثقيل	يكرهه القوم وذى تطفيل
صاحبها إن قدم الطعاما	يحتاج أن يحتمل الملاما
لو أنه يندس فى حرمه	لابد أن يشرعوا فى ذمه
يقول بعضهم عازه أبزار	وبعضهم حافت عليه النار
وآخر هذا قليل الملح	يظهر أنى فطن ذو نصح

(١) عيون الأنباء ج٢ ص ٢٤٧ .

ينهب مابين يـــديه نـــهبا　　　ويشرب الماء القراح العذبا

وعلى الرغم من طغيان روح السخرية على شعر أبى الحكم وما ورد من أخبار تدل على تهتك كثير لا يليق بالمتفلسفين المعروفين بالجد فى الدرس والبحث ، والتفكير العميق فى أسرار الوجود والحياة والموت .... أقول على الرغم من ذلك فقد روى لأبى الحكم شعر فلسفى يتناول فيه موضوع الموت، ويتحسر على نفسه إذا درج فى الكفن ، وقضى عليه بالغياب الأبدى عن دنياه وأهله ووطنه ، فيقول[1] :

يالهف نفسى إذا درجت فى الكفن　　　وغـــيبونى عن الأهلين والوطن

وقيل لا يبعد من كان ينـــــشدنا　　　أنا الذى نظر الأعمى فلم يرنى

ويتناول الموضوع نفسه ، مصوراً مايلقاه الميت من وحشة القبر وغربته، موضحًا أن الزمان الذى يذهب لا يعود ، وأنه لا مفر لأحد من الموت ، كما أنه لا رجعة إلى الدنيا بعده ، وذلك فى قصيدة قيل إنه أنشدها قبل وفاته بقليل ، وفيها يقول[2] :

ندمت على موتـــــى وما كان من أمـــرى

فيــــاليت شـــــعرى من يرثيكم بعدى

وإننى لأختار الرجوع لو أنـــــــنى

أرد ولـــــكن لا ســـــبيل إلى الـــرد

---

(١) عيون الأنباء ج٣ ص ٢٥٥ .

(٢) السابق جـ٣ ص ٢٥٥ .

ولو كنت أدرى أننى غـــير راجـــع

لمـــــا كنت قد أسرعت سيراً إلى اللحد

ألا هل من الموت المـــفرق من بـــد

وهــــل لزمـــــان قد تســـلف من رد

مضى الأهل والأحباب عنى وودعـــوا

وغـــــودرت فى دهـــماء موحشة وحدى

لبعض على بعض لديكم مـــــــزية

ولا يـــــــــعرف المولى لدينا من العبد

ولا تقنطوا من رحمة الله بعـــد ذا

فلـــــيس لنا من رحـــــمة الله من بد

وهكذا يندم فى آخر حياته على ماكان من أمره ، ولا يجد ملاذاً يرجوه غير رحمة الله التى وسعت كل شئ ، يفيئ إليها ، ويستظل بها ، والله غفور رحيم .

* * *

٢ - ابن البذوخ

هو أبو جعفر عمر بن عبد الله بن البذوخ ، كان طبيبًا مشهورًا بدمشق، يركب الأدوية التى يعالج بها من يقصده للمداواة .

قال عنه ابن أبى أصيبعة :

« ... وكان معتنيا بالكتب الطبية والنظر فيها وتحقيق ما ذكره المتقدمون من صفة الأمراض ومداواتها ، وكان له أيضًا اعتناء بعلم الحديث ، ويشعر ، وله رجز كثير ......»[١] .

ومن تصانيفه : شرح كتاب الفصول لأبقراط أرجوزة ، وشرح كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط أرجوزة أيضًا ، وكتاب ذخيرة الألباء المفرد فى التأليف عن الأشياء ، وحواش على كتاب القانون لابن سينا[٢] .

ويبدو أنه سخر شاعريته لنظم العلوم ومايتعلق بالطب من معارف ، فمن شعره فى مدح كتب جالينوس ، والتنويه بجهود أبقراط وغيره من قدامى الأطباءقوله[٣] :

أكرم بكـــتب لجـــالينوس قد جمعت

ماقـــال بـــقراط والماضون فى القدم

---

(١) عيون الأنباء ج٢ ص ٢٥٧ .

(٢) السابق الصفحة نفسها .

(٣) السابق ص ٢٥٨ .

كديسقوريدس ، علم الدواء له

مسلم عند أهل الطب فى الأمم

فالطب عن ذين مع بقراط منتشر

من بعدهم كانتشار النور فى الظلم

بطبهم تقتدى الأفكار مشرقة

ترى ضياء الشفا فى ظلمة السقم

لا تبتغى فى شفاء الداء غيرهم

فإن وجدانه فى الطب كالعدم

لأنهم كملوا ماأصلوه فما

يحتاج فيه إلى إتمام غيرهم

إلا الدواء فما تحصى منافعه

وعده كثرة فى العرب والعجم

عد النجوم نبات الأرض أجمعها

من ذا يعد جميع الرمل والأكم

فى كل يوم ترى فى الأرض معجزة

من التجارب والآيات والحكم

وإذا كان هذا نظمًا باردًا لا يعبر عن عاطفة ولا يحمل إحساسًا فإن لابن البذوخ قصيدة ذكر فيها الموت والمعاد ، وشكا الهرم ومايصحبه من

ضعف القوة والزهد فى الحياة ، وتضرع فيها إلى الله - عز وجل - أن ييسر له فعل الخير ، ويختم له بالصالحات لأنه عرف أن العمل الصالح وتقوى الله هما خير صاحب للإنسان بعد رحيله عن الدنيا ، يقول(١) :

يارب سهل لى الخيرات أفعـلها ... مـع الأنام بموجودى وإمكانى

فالقبر باب إلى دار البقاء ومن ... للخير يغرس أثمار المنى جانى

وخير أنس الفتى تقوى يصاحبه ... والخير يفعله مع كل إنسان

ياذا الجلالة والإكرام ياأملى ... اختم بخير وتوحيد وإيمان

إن كان مولاى لا يرجوك ذو زلل ... بل من أطاعك من للمذنب الجانى

سن الثمانين يامولاى قد سلبت ... أنوار عينى وسمعى ثم أسنانى

لا أستطيع قيامًا غير معتمد ... مابين اثنين شكواى لرحمان

ومابقى من لذيذ يستلذ به ... لى لذة غير تنصيت لقرآن

أو شرحه أو شرح الحديث وما ... يختص بالطب أو تفكيه أقران

فالشيخ تعميره يفضى إلى هرم ... يذله أو عمى أو داء أزمان

فموته ستره إذ لا محيص له ... عن الممات فكم يبقى لنقصان

نعوذ بالله من شر الحياة ومن ... شر الممات وشر الإنس والجان

إن الشيوخ كأشجار غدت حطبا فليس لها يرجى توريق أغصان

لم يبق فى الشيخ نفع غير تجربة ... وحسن رأى صفا من طول أزمان

---

(١) السابق ص ٢٥٧ .

ياخالق الخلق يامن لا شـــريك له　　قد جئت ضيفًا لتقرينى بغفران

مولاى مالى سوى التوحيد من عمل　فاخـــتم به منعما ياخير منـان

وتصويره للشيوخ بالأشجار الجافة التى صارت حطبا لا يرجى له أن يورق ، تصوير جيد يدل على الحالة النفسية التى أحسها فى هذه المرحلة التى ضعفت فيها قوته ، وجف نبع الأمل من نفسه ، فولى وجهه نحو الآخرة يرجو فيها ثواب الله وغفرانه .

وقد توفى ابن البذوخ سنة خمس وسبعين وخمسمائة[1] .

* * *

(١) السابق ص ٢٥٧ .

٣- عبد المنعم الجلياني

هو أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسان الغساني الأندلسي الجلياني ، كان عالمًا بالطب والكمياء ، بارعًا في الأدب وصناعة الشعر .

قدم من بلاد الأندلس ، واستوطن الشام ، وأقام بدمشق إلى أن مات ، وقد ذكر ابن أبي أصيبعة أن الكتب التي ألفها تبلغ عشرة منها(١) :

ديوان الحكم وميدان الكلم ، ويشتمل على الإشارة إلى كل غامض المدرك من العلم ، وإلى كل صادق المنسك من العمل ، وإلى كل واضح المسلك من الفضيلة ، وهو نظم وديوان المشوقات إلى الملأ الأعلى ، وهو نظم، وديوان أدب السلوك ، وكتاب نوادر الوحي ، وهو في غريب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وكتاب تحرير النظر ، وهو كلمات مفردات في البسائط والمركبات والقوى والحركات ، وكتاب سر البلاغة وصنائع البديع ، وديوان المبشرات والقدسيات ، وهو نظم وتدبيج وكلام مطلق يشتمل على وصف الحروب والفتوح التي تمت على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي - خاصة بيت المقدس .

ومنها أيضًا ديوان الغزل والتشبيب والموشحات والدوبيتي وما يتصل به، وديوان تشبيهات وألغاز ورموز وأوصاف وزجريات ، وديوان ترسل ومخاطبات في معان كثيرة وأصناف من الخطب والأدعية ، وكتاب في خصائص الملك الناصر صلاح الدين .

---

(١) عيون الأنباء ج٣ ص ٢٦٤ .

وقد حظى الجليانى باحترام صلاح الدين وتقديره ، وله فيه مدائح كثيرة ، منها قصيدة تسمى (التحفة الجوهرية) أشاد فيها بهمة صلاح الدين العالية ، وشجاعته الفائقة ، وبحسن تدبيره وسياسته فى السلم والحرب ، كما وصف ماأوقعه بجيوش الصليبيين فى معاركه التى خاضها ضدهم .

وتبدأ القصيدة بأبيات من الحكمة قدمها الشاعر الفليسوف بين يدى مديحه فقال[1] :

رفاهية الشهم اقتحام العظائم
طلابا لعز أو غلابا لضائم

فلم يحظ بالعلياء من هاب صدمة
فغض عنانا دون قرع الصوارم

فأى اتضاح كان لابعد مشكل
وأى انفساح بان لاعن مأزم

هى الهمة الشماء تلحظ غاية
فترمى إليها عن قسى العزائم

فليس بحى سالك فى خسائس
وليس بميت هالك فى مكارم

---

(١) عيون الأنباء ج٢ ص ٢٥٩ .

ومـــاالناس إلا راحـــلون وبينهم

رجـــال ثوت آثـــارهم كالمعالم

بعزة بـــأس واطـــلاع بصـــيرة

وعـــزة نفس واتـــساع مراحم

وأعظم أهل الفضل من ساد بالقـــوى

فـــقاد بسبق الطبع أقوى الأعاظم

وفى مديحه للناصر صلاح الدين المجاهد العظيم يشير إلى قوة إيمانه وصدق جهاده فى سبيل الله فيقول[1] :

فـــديتك من معل لدينك مبتن وأفديك من مبل لضدك هادم

فأنت الذى أيقظت حزب محمد جهادًا وهم فى غفلة المتناوم

فحاربت للإيمان لا لضـــغائن ورابطت للرضوان لا لمـــغانم

ويصور عشق الناصر للجهاد ، وملازمته إياه بقوله :

فأنت المليك الناصر الحـــق ممـــعنا

يـــرى دهـــم شوك الحرب مهد النواعم

أتعشقك الهيجاء أم أنـــت عاشـــق

لـــــها فى وصـــال من حبيبين دائم

---

(١) السابق ص ٢٦٠ .

شتاء وصيفًا لا نـــزال نـــراك فى
مســـــاء وصــــبح كـــالأذان الملازم

فهجرت حتى قـيل ليـــس بقــــائل
وبـــــيت حـــتى قيل ليس بنائم

ثم يبين آثار الحرب فى جيوش الفرنجة بعد انتصار صلاح الدين عليهم ، ويشيد بأخلاقه الفاضلة، المستمدة من عقيدته الإسلامية، وهى الوفاء والرحمة والبر ، مما جعل الأعداء يعجبون به ويعظمونه ، فيقول[1] :

وأرجـــفت روما إذ خرقت فرنجة | فكانوا غثاء فى سيول الهزائم
وفيت لهم حتى أحبوك ساطـــيا | بهم ووفاء العهد قيد المخاصم
فخانوا فخابوا فانتدوا فتلاومـــوا | فقالوا خُذِلنا بارتكاب الجرائم
وخص صلاح الدين بالنصر إذ أتى | بقـــلب سليم راحمًا للمـــسالم
فخطوا بأرجاء الهـياكل صـــورة | لك اعتقدوها كاعتقاد الأقانم
يدين لها قس ويرقى بوصــــفها | ويكتبه يشــفى به فى التمائم

ويمتدحه بالذكاء وجودة الرأى ، ورقة الطبع والهيبة ، ويقول : إن مدحه فرض عليه ، ومدح غيره محرم ، ولصدق مودته وحبه لصلاح الدين يعلن أنه لايريد بهذا المديح غير تقديم التحية والشكر للبطل العظيم لما قدم فى سبيل الله ومن أجل الإسلام ، فيقول :

فتى ذهنه يرمى بشهب خواطر | تـــشق دجون المغمضات العواتم
يهاب رقيق الشعر رقة طـبعه | كما هاب منه اليأس غلب الضراغم

(١) السابق ص ٢٦٠ .

ومازلت أجلو من حلاه عرائسًا   يظل بها أهل النهى فى ولائم

ففرضا أرى مدحى له متجنبًا   مديح سواه كاجتناب المحرم

وليس اجتداء بل تحية شاكر   وتقييد آثار وتأييد عازم

ثم يختم قصيدته بالنصح لممدوحه بدوام التمسك بحبل الله والاعتصام به ، ثم بالسلام على مقامه ، فيقول :

فياخير قوام على خير ملة   يكافح عنها كل ألب مقاوم

تمسك بحبل الله معتصما به   فليس سواه ناصر نصر عاصم

بعثت بها والشوق يقدم ركبها   إلى مجلس فيه منى كل قادم

سلام على ذاك المقام الذى به   أقيم عمود المكرمات العظائم

وللجليانى قصيدة رائية طويلة هنأ بها السلطان صلاح الدين بفتح القدس ، وفيها تعجب من حال الإفرنج الذين انهزموا على الرغم من كثرتهم وقوتهم ، وإشادة بشجاعة الفاتح العظيم الذى اعتقد الشاعر أنه هو الأمير الذى بشر به الرسول - ﷺ - لينقذ الإسلام والمسلمين من فتنة البغى، وهو الذى فاقت معاركه ملاحم ذى القرنين ، واعترف له الرواة بما لم يثبتوه لغيره من القادة والأبطال ، ولا ينسى الشاعر أن يرجع الفضل فى ذلك النصر المبين إلى عون الله وقدرته .

يقول الجليانى فى قصيدته[1] :

فى باطن الغيب مالا تدرك الفكر   فذو البصيرة فى الأحداث يعتبر

---

(١) أدب الحروب الصليبية ص ١٤٢ . د/ عبد اللطيف حمزه دار الفكر العربى ط ٢ - ١٩٨٤ .

مالى أرى ملك الإفرنج فى قفص   أين القواضب والعسالة السمُر

والإسبتار إلى الداوية التاموا   كأنهم سد يأجوج إذا اشتجروا

ياوقعة التل ماأبقيت من عجب   جحافل لم يفت من جمعها بشر

وياضحى السبت ماللقوم قد سبتوا   تهودوا أم بكأس الطعن قد سكروا

وياضريح شعيب مالهم جثموا   كمدين أم لقوا رجفا بما كفروا

حطوا بحطين ملكا كافيًا عجبا   فى ساعة زال ذاك الملك والقدر

أهوى إليهم صلاح الدين مفترسًا   وهو الغضنفر أعدى ظفره الظفر

وأنجز الله للسلطان موعده   ونذره فى كفور دينه البطر

وعاين الملك الأبرنس فى دمه   فمات حيا وحيا وهو يعتذر

رأى مليكا ملوك الأرض تتبعه   والنجم يخدمه والشمس والقمر

هذا المليك الذى بشرى النبى به   فى فتنة البغى للإسلام ينتصر

أنسى ملاحم ذى القرنين واعترفت   له الرواة بما لم ينمه أثر

أعين إسكندر بالخضر وهو له   عون من الله يستغنى به الخضر

وصنع ذى العرش إبداع بلا سبب   فلا تقل : كيف هذا الحادث الخطر

بينا سباياه تجلى فى دمشق إذا   ملك الفرنج مع الأتراك محتجر

إزاءه زعماء الساحلين معا   مصفدين بحبل القهر قد أسروا

يتلوهم صلبوت سيق منتكسًا   وحوله كل قسيس له زبد

يسبى فرنجة من أقطارها وله   مع المجوس حروب قدحها سعر

وبعض أبنائه بالقـــدس منتدب وبعـــضهم في رومة الكبرى له وطر

براية تخرق الأرض الكـبيرة في جـــمع تـقول له الأجسام : لاوزر

وفى القصيدة إشارات تاريخية ودينية كثيرة ، منها بشرى النبى ، وسد يأجـوج ، وسـبت اليـهـود ، وضـريح شـعـيب ، وذوالقـرنين ، والإسكندر ، والخضر.

وتظهر كذلك فى القصيدة روح الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين ، والفرح بنصر الله عز وجل ، واستخدم الشاعر ألفاظًا ذات دلالة عسكرية وقد يكون بعضها دخيلا على العربية كالإسبتار والداوية والأبرنس .

وللحكيم الجليانى أيضًا أشعار رقيقة فى الغزل ، يصف فيها برحاء الحب ، وآلام الشوق ، منها قوله[1] :

أتاح له نجـــواه بعض شـفائه فباح بما أخفاه من برحـائه

متى لمحت عين العليل طبـــيبه فلا بد أن يومى إليه بـدائه

وكم فى الهوى من مكتس برد وجده وملتـــحف من دائه بردائه

سباه حبيب غاب فى فيض حـسنه فأعشى عيونا أولعت ببهائه

وليس له ثان يلاذبـــه فمـــن حواه هواه لم يزل فى حوائه

وله أبيات أخرى يقول فيها[2] :

على سوق شوقى تستـــقل الركـــائب

وعـــن صوب دمـــعى تستهل السحائب

(١) عيون الأنباء ج٣ ص ٢٦٣ .

(٢) السابق الصفحة نفسها .

فمـــا الـــبرق إلا من حنـينى نابض

ولا الرعـــد إلا مـــن أنـينى نادب

نايتم فلا صبر من القـــلب حاضـــر

لـــدى ولا قـــلب عن الـــذكر غائب

ففى كل وقت لـــى إليـكم تطـــلع

وفـــى كـــل حـــال لى عليكم معاتب

وياليت شعرى بعـــدنا من صحـــبتم

فـــما بـــعدكم من غير الهوى لى صاحب

وفى هذا الغزل من الألفاظ والأساليب مايجعله شبيها بغزل المتصوفة الذى عبروا عن طريقه عن أشواقهم ومواجيدهم فى الحب الإلهى ، ومن هذه الألفاظ والأساليب (النجوى ، والشفاء ، والطبيب ، وغاب فى فيض حسنه ، وأعشى عيونا أولعت ببهائه ، وليس له ثان يلاذبه ، فلا صبر من القلب حاضر ، ولاقلب عن الذكر غائب)

والنظر فى سيرة الحكيم الجليانى واستعراض مصنفاته يوضح أنه كان ذا نظر فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، وأنه عنى بالتأليف عن غامض المدرك من العلم ، وصادق المنسك من العمل ، وواضح المسلك من الفضيلة ، وعن أدب السلوك ، والحكمة ، والمشوقات إلى الملأ الأعلى .

وهذه الموضوعات هى عالم التصوف وقضاياه ، فلا يستبعد مع هذا أن يكون الغزل الذى سبق غزلا صوفيًا يرمز فيه الجليانى إلى تجربته فى الحب الإلهى ، بل هذا هو الأقرب للحقيقة بالفعل .

وتمشيا مع هذا المسلك الصوفى - فيما أرى - ترفع الحكيم الجليانى عن التزلف إلى الأمراء وذوى المنصب ، وصان نفسه عن التذلل لهم أو نفاقهم طلبًا للمال أو الجاه ، لأنه اعتقد - صوابًا وصدقًا - أن من لاذ بالله عز واستغنى، ومن لاذ بغيره ذل وهان ، وقد عبر عن هذه المعانى فى أبيات قال فيها[1] :

أقبل ذو دولة فقالوا	لمثل ذا فاتخذ ملاذا
فقلت للحاضرين حولى	أجائز أن يموت هذا
قالوا نعم قلت فهو ظل	يعطش من ظنه رذاذا
قد ذل من لاذ بالفوانى	وعز من بالقديم لاذا

وفى أبيات أخرى يروى تساؤل بعض الناس عن قوم ارتفعت منزلتهم عند الملوك ، وليس لهم همة ولا فضل ، وعن السبب الذى قعد به عن منزلة هؤلاء مع ماله من فضل وهمة ، ويجيب على هذا التساؤل بأن هؤلاء القوم باعوا أنفسهم وكرامتهم مقابل المنصب والجاه ، وأنه صان نفسه ولم يخضع لملك أو أمير .... فيقول[2] :

قالوا نرى نفرًا عند الملوك سموا

وما لهم همة تسمو ولا ورع

وأنت ذو همة فى الفضل عالية

فلم ظمئت وهم فى الجاه قد كرعوا

---

(١) عيون الأنباء ج٣ ص ٢٦٤ .

(٢) السابق الصفحة نفسها .

فقلت باعوا نفوسًا واشتروا ثـــمنا

وصـــــنت نفسي فلم أخضع كما خضعوا

قد يكرم القرد إعــجابًا بخـــسته

وقـــد يهان لـــفرط النــخوة السبع

ويوجه نصيحة حكيمة لمن يريد أن يصون نفسه عن الامتهان فيقول[1] :

من لم يسل عنك فلا تــسألن عنه ولو كان عزيز النــفر

وكن فتى لم تــدعه حــاجة إلى امتهان النفس إلا نفر

* * *

(١) عيون الأنباء ج٣ ص ٢٦٤ .

٤- ابن عبد الكريم المهندس

هو مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن الحارثى، ولد ونشأ بدمشق، وعرف بالمهندس لجودة معرفته بالهندسة وشهرته فيها، قبل أن يشتهر بمعرفة صناعة الطب، وكان أول أمره يتكسب من صناعة النجارة، ثم قرأ كتاب أوقليدس وفهمه، وكتاب المجسطى وأتقنه، كما اشتغل بصناعة النجوم والعلوم الرياضية وتفوق فيهما، وقرأ الطب على أبى المجد محمد بن أبى الحكم، ونسخ بخطه كتباً كثيرة فى العلوم الحكمية، وفى صناعة الطب.

سافر إلى مصر، وسمع الحديث من بعض علماء الإسكندرية، كما اشتغل بالأدب وعلم النحو، لكنه عاد إلى دمشق وأقام بها إلى أن مات.

وكان يعمل طبيباً فى البيمارستان(المستشفى) بدمشق، كما عهد إليه بإصلاح ساعات الجامع الأموى ومراعاتها وكل ذلك يدل على إتقانه لعلوم الطب والرياضة والهندسة.

ويقول ابن أبى أصيبعة : إنه وجد بخطه الكتب الستة عشر لجالينوس.

وكان أبو الفضل شاعراً، ومن شعره الذى نسبه إليه ابن أبى أصيبعة أبيات فى مديح القاضى محيى الدين بن القاضى زكى الدين. وفيها يقول[1]:

خصصت بالآب لما أن رأيتهم

دعوا بنعتك أشخاصاً من البشر

---

(١) عيون الأنباء ج٣ ص ٣١٢

ضد النـــعوت تراهــم إن بلوتـــهم

وقـــد يســـمى بصـــيرياً غير ذى بصر

والنعت ما لم تـــك الأفـــعال تعضده

اســـم على صـــورة خطت من الصور

فالدين والمـــلك والإســـلام قاطـــبة

بـــرأيه فى أمـــان من يـــد الغير

كم سن سنـــة خير فـــى ولايـــته

وقـــام للـــه فيـــها غـــير معتذر

يرجو بذاك نعيـــماً لا نـــفاد لـــه

جـــوار مـــلك عـــزيز جـــل مقتدر

فـــالله يكـــلؤه من كـــل حـــادثـــة

مـــا غـــردت هاتـــفات الورق فى الشجر

وتوفى أبو الفضل المهندس سنة تسع وتسعين وخمسمائة .

* * *

الفصل السادس

الفلاسفة الشعراء

فى مصر

✵ ✵ ✵

فى الحديث عن البيئات الثقافية اتضح أن مشاركة مصر فى علوم الفلسفة لم تكن نشيطة بالقدر الذى كان فى بلاد العراق وإيران والشام ، وأن أكثر النشاط العلمى فى مصر كان موجهًا إلى العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان فى مصر أطباء مشهورون ذكر منهم ابن أبى أصيبعة على بن سليمان ، وعلى بن رضوان ، وابن الهيثم ، وابن جميع ، وآخرين .

ولما كان عدد المشتغلين بالعلوم الفلسفية فى مصر قليلا قل كذلك عدد من عرف بالجمع بين الفلسفة والشعر فيها ، وقصرت فى هذا المجال عن العراق وإيران والشام .

ومن فلاسفة مصر الشعراء نصر بن محمود بن المعرف الذى يقول فى تفنيد مزاعم الذين يقولون بأن الطبيعة هى مبدأ الكيان وعنها صدر الخلق ، ولبئس ماقالوا(١) :

وقالوا الطبيعة مبدأ الكيان	**فياليت شعرى ماهى الطبيعه**
أقـــادرة طبعت نفـــسها	**على ذاك أم ليس بالمستطيعه**

وعن بحث الفلاسفة فيما وراء الطبيعة يقول(٢) :

وقالـــوا الطبيعة معلومنا	**ونـــحن نبين ماحـــدها**
ولم يعرفوا الآن ماقبـــلها	**فكيف يرومون مابعدها**

---

(١) عيون الأنباء ج٢ ص ١٠٨ الوهبية.

(٢) السابق .

ومنهم كذلك الموفق بن شوعة ، الذى له هجاء قبيح فى الطبيب اليهودى ابن جميع[1] .

ومنهم أيضًا رشيد الدين أبو حليفه ، وله شعر رقيق فى الغزل منه قوله[2] :

سمح الحبيب بوصله فى ليلة ... غفل الرقيب ونام عن جنباتها

فى روضة لولا الزوال لشابهت ... جنات عدن فى جميع صفاتها

فالطير يطرب فى الغصون بصوته ... والراح تحكى فى كؤوس سقاتها

ومجالس القمر المنير تنزهت ... فيه الحواس باسمها وكناتها

ومنه أيضًا[3] :

خليلى إنى قد بقيت مسهدا ... من الحب مأسور الفؤاد مقيدا

بحب فتاة يخجل البدر وجهها ... ولا سيما فى ليل شعر إذا بدا

ضللت بها وهى الهلال ملاحة ... فوا عجبا منه أضل وماهدى

لها مبسم كالدر أضحى منظما ... ونطق كمثل الدر أمسى مبردا

أما أكبر الفلاسفة الشعراء الذين كانوا بمصر فهو على بن النضر ، فقد كان طبيبًا ، وعالمًا بفنون الفلسفة ، وشاعرًا بارعاً .

ولما زار أمية بن أبى الصلت الفيلسوف الأندلسى مصر لم يثن على أحد من أطبائها وفلاسفتها سوى على بن النضر فقد قال عنه :

---

(١) السابق ج٢ ص ١١٦ .

(٢) عيون الأنباء ج٢ ص ١٢٣ .

(٣) المرجع السابق .

« وأولاهم بالتقديم ، وأحقهم بالحظ الأوفر من التعظيم القاضى أبو الحسن على بن النضر ، المعروف بالأديب ، ذو الأدب الجم والعلم الواسع والفضل البارع ، وله فى سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى والرتبة الأولى»[1].

ومن شعر على بن النضر أبيات رقيقة كتبها فى صدر رسالة يرد بها على رسالة أتته من صديق ، يقول فيها[2] :

أتى كتابك عن سخط فآنسنى ... بما تضمن أنس العين بالوسن

قرأته فجرت فى كل جارحة ... منى معانيه جرى الماء فى الغصن

فما أقول بعثت الروح فيه إلى ... قلبى ولكن بعثت الروح فى بدنى

وجاء ابن النضر من الصعيد الأعلى بمصر إلى الفسطاط يلتمس من الوزير الأفضل خدمة فخاب أمله ، وضاع رجاؤه ، ولم ينجح سعيه ، فتأثر بذلك ، وقال قصيدة شكا فيها الحرمان وعاتب الزمان ، وذم الحرص ، ومدح المروءة ، منها قوله[3] :

بين التعزز والتذلل مسلك ... بادى المنار لعين كل موفق

فاسلكه فى كل المواطن واجتنب ... كبر الأبى وذلة المتملق

ولقد جلبت من الصنائع خيرها ... لأجل مختار وأكرم منفق

ورجوت خفض العيش تحت ظلاله ... لابد أن نفقت وإن لم تنفق

---

(١) الرسالة المصرية ص ٤٠ لأمية بن أبى الصلت ضمن نوادر المخطوطات تحقيق عبد السلام هارون ج١.

(٢) السابق ص ٤٣ .

(٣) السابق ص ٤٠ .

ظنا شبيها باليقين ولم إخل ... أن الزمان بما سقانى مشرقى

ولعاتب بالحرص قول بين ... لو كنت شمت سحابة لم تطرق

ماارتدت إلا خير مرتاد ولم ... أصل الرجاء بحبل غير الأوثق

وإذا أبى الرزق القضاء على امرئ ... لم تغن فيه حيلة المسترزق

ولعمر عادية الخطوب وإن رمت ... شملى بسهم تشتت وتفرق

لأقارعن الدهر دون مروءتى ... وحرمت عز النصر إن لم أصدق

والأبيات تعبر عن نفس مهذبة تدعو إلى التعزز فى غير كبر ، وإلى التواضع فى غير ذله ، وهو مسلك دقيق يخطئه كثير من الناس فيقعون فى إحدى الرذيلتين الكبر أو المهانة . ولا يستغرب من مثله أن يدعو إلى القناعة، ويندم على ماتصوره تذللا منه ألجأته الضرورة إليه أحيانا ، ويذم تلك الضرورات التى ترمى الناس فى درك المذلة إذ يقول[1] :

لهفى لملك قناعة لو أننى ... متعت فيه بعزة المتملك

ولكنز يأس كنت قد أحرزته ... لو لم تعث فيه الخطوب وتفتك

آليت أجعل ماء وجهى بعده ... كدم يهل به الحجيج بمنسك

وأخ من الصبر الجميل قطعته ... فى طاعة الأمل الذى لم يدرك

ياقاتل الله الضرورة حالة ... أى المسالك بالفتى لم تسلك

كم بات مشكو إليه تحيفت ... حلقاته قرعا براحة ممسك

ولم على قدم رمت ، ونواظر ... كحلت محاجرها بموطئ سنبك

---

(١) الرسالة المصرية ص ٤٠ ومابعدها .

ومسربل بالصبر والتقوى دعت فاجابها فى معرض المتنسك

ظلت تصرفه كتصريف العصا رأس البعير لمبرك عن مبرك

وكان ابن النضر ملتزمًا بسلوك متوازن ، يرفض التذلل كما يرفض الكبر والتعالى على الناس ، وود أن يعامله الناس هذه المعاملة الكريمة التى تتعادل فيها الحقوق مع الواجبات. ولما كلفه أحد الكبراء زيارته ، وقعد هو عن زيارته تعاظمًا وتكبرًا رفض هذا المسلك منه وخاطبه بقوله :

أكبرت نفسك أن تسعى مصادقة وسمتنيه لقد كلفتنى شططا

لا تكذبن فما كنا لنوجب من حق وأنت تراه عنك قد سقطا

لوبعتك النفس بيعًا كنت تملكها به لكان عليك العدل مشترطا

فهل سبيل إلى أن لا تواصلنى ولا تكلف مثلى هذه الخططا

عسى صحيفة مابينى وبينك أن تطوى وماضمت غير الذى فرطا[1]

والذى يأبى التذلل والمهانة يجد راحة وأمنا فى اللجوء إلى الله عز وجل، فهو وحده القادر على تفريج الكروب وكشف الشدائد ، وهكذا فعل ابن النضر عندما أصابته شدة ، فلجأ إلى مولاه منشدًا[2] :

يامستجيب دعاء المستجير به ويامفرج ليل الكربة الداجى

قد أرتجت دوننا الأبواب وامتنعت وجل بابك عن منع وإرتاج

نخاف عدلك أن يجرى القضاء به ونرتجيك فكن للخائف الراجى

---

(١) الرسالة المصرية ص ٤٢ .

(٢) الرسالة المصرية ص ٤٣ .

الفصل السابع

السمات الفنية والقيمة الأدبية لشعر الفلاسفة

* * *

أولا : السمات الفنية

ا - فى الأفكار والمعانى

بالنظر فى النصوص التى رويت للفلاسفة الشعراء يتبين أن هذه النصوص فى جملتها تناولت عدداً كبيراً من أغراض الشعر ، فقد قالوا فى الغزل ، والمديح ، والهجاء ، والرثاء ، والوصف ، إضافة إلى الشعر الفلسفى الذى عبر وافيه عن رؤيتهم وآرائهم فى القضايا الكبرى كالنفس ، والوجود، والموت .

وشعر الفلاسفة فى أكثر هذه الأغراض جار على السنن الذى مهده السابقون ، ومبنى على أفكار معادة مكرورة ، ففى الغزل الذى نسب لبعضهم حديث عن ألم الفراق ، وشدة الأشواق ، وتمن للوصل ، ووصف للخدود والقدود ، وحلاوة اللقاء وشدة العناق ... إلى آخر هذه المعانى .

بيد أن بعض هذا الغزل تبدو فيه مشابه من الغزل الصوفى الذى كان شائعًا عند شعراء التصوف ولا يزال ، فالسهروردى – فى رأيى – استخدم الغزل للرمز إلى تعلقه بالذات الإلهية وشوقه إليها ، وتطلعه إلى المعرفة والوصول إلى مراده فى الحب الإلهى ، وذلك فى قصيدته التى مطلعها :

أبداً تحن إليكم الأرواح   ووصالكم ريحانها والراح

ويبدو أن الجليانى استخدم الغزل للتعبير عن تجربة فى الحب الإلهى أيضًا كما فى قوله :

أتاح له نجواه بعض شفائه   فباح بما أخفاه من برحائه

وفى شعر المديح يثبتون للممدوح صفات الشجاعة ، والكرم ، والمروءة ، والنجدة وتسير بعض قصائدهم فى هذا الغرض على المنهج الجاهلى فى بناء قصيدة المديح ، فتبدأ بالغزل ثم تنتقل إلى وصف الرحلة والناقه التى توصله إلى باب الممدوح ، الذى لولاه ماتعب الشاعر ولا أتعب ناقته ، لكن مديحهم لم يتورط فى المبالغات الممجوجة - غالبًا - وقد يكون السبب فى ذلك أن الفلاسفة بطبيعة استعدادهم النفسى ، واعتزازهم بمواهبهم ، وبحكم مكانتهم فى المجتمع ، لم يكونوا من المتكسبين بالشعر ، وقد عبر كثير منهم عن ازدرائه للدنيا ، وترفعه عنها ، ونفوره من الذل ، أو الوقوف على باب ملك أو أمير .

والذين قالوا فى المديح كانوا مدفوعين بعاطفة صادقة فى إكبار ممدوحيهم ، وخير مثال لهم فى ذلك الحكيم الجليانى الذى دبج المدائح فى الناصر صلاح الدين ، ففي هذه المدائح تبدو عاطفة الحب والإعجاب والإكبار التى يحملها قلب الشاعر لذلك البطل الكبير الذى وحد صفوف المسلمين فى مواجهة الصليبيين ، واستطاع أن يخلص بيت المقدس من اغتصابهم ، ولم يكن مديحه إياه بقصد الحصول على مال ، ولا بهدف القرب والحظوة عند السلطان .

وإذا كان المتكسبون بالمديح غالبًا مايصرحون بحاجتهم إلى المال ، أو يلوحون برغبتهم فى الصلة والعطاء ، فإن الحكيم الجليانى صرح بضد ذلك، وأعلن أن مديحه لصلاح الدين صادر عن إيمان واقتناع بأنه جدير بهذا المدح ، وأن الثناء عليه فرض وواجب، نظراً لما قدم هذا الملك العظيم فى سبيل الله وفى سبيل تحرير بيت المقدس ، فقال :

فقرضًا أرى مدحى له متجنبًا ... مديح سواه كاجتناب المحرم

وليس اجتداء بل تحية شـاكر   وتقـــييد آثار وتأييد عازم

كمـا يدل على حسن قصده ونزاهـة نيته توجـهه بالنصيحـة إلى الملك الناصر فى مثل قوله :

تمسك بحبل الله معتصمًا به   فليس سواه ناصر نصر عاصم

ويدل على عزة نفسه وترفعه عن مواطن الذل قوله :

من لم يسل عنك فلا تسألن   عنه ولــو كان عزيز النفر

وكن فتى لم تـــدعه حاجة   إلى امتهان النفس الإنفر

كمـا يتضح هذا الاعـتزاز ، والاعـتدال فى المديح ، وعدم التـورط فى المبالغة والإسراف فى قول على بن النضر :

بــين التـــعزز والتـــذلل مسلك   بادى المنار لعين كل موفق

فاسلكه فى كل المواطن واجتنب   كــبر الأبــى وذلة المتملق

وهذا المسلك يحمد لطائفة الفـلاسفـة الشـعراء فى عصر كـثرت فـيه المبـالغـة فـى المديح وزادت عن كل حـد مـقـبـول، وتسـابق فـيـه الشـعـراء ، وتنافسوا على أبواب الملوك والأمراء والوزراء .

أما شعر الهجاء الذى قاله بعضهم ، فيدل على براعة وذكاء خاصة فى فن الهجـاء السـاخر ، وإخراج قصـيدة الـهجـاء مـخرج المرثية كمـا ورد فى شعر أبى الحكم عبيد الله الباهلى وهبة الله بن القطان .

وفى الرثاء اتخذ شـعر الفـلاسفـة مسلكًا مميـزًا ، فـإذا كـان الغـالب على شعر الرثاء الحديث عن الميت وذكر مآثره ومناقبه ، فإنه عند الفلاسفة ينحو

منحى آخر ، إذ يغلب عليه التأمل فى فلسفة الموت وحكمته والتدبر فى قضايا الحياة والوجود ، ومحاولة النفاذ إلى الأسرار والحقائق والجواهر الكامنة وراء الأحداث والظواهر والأعراض .

وخير مثال على ذلك قصيدة ابن الشبل البغدادى فى رثاء أخيه ، والتى مطلعها :

غاية الحزن والسرور انقضاء   مالحى من بعد ميت بقاء

ومن أبياتها التى عرض فيها لفلسفة الموت قوله :

نتمنى وفى المنى قصر العمر   فنغدو بما نسر نساء

صحة المرء للسقام طريق   وطريق الفناء هذا البقاء

بالذى نغتذى نموت ونحيا   أقتل الداء للنفوس الدواء

مالقينا من غدر دنيانا فلاكا   نت ولا كان أخذها والعطاء

راجع جودها عليها فمهما   يهب الصبح يسترد المساء

وقوله فى آخرها :

يدرك الموت كل حى ولو أخفته   عنه ببرجها الجوزاء

ليت شعرى وللبلى كل ذا الخلق   بماذا تميز الأنبياء

موت العالم المفضل بالنطق   وذا السارح البهيم سواء

لاغوى لفقده تبسم الأرض   ولا للتقى تبكى السماء

إلى أخر القصيدة ......

وفى الشعر الفلسفى الخالص تعرض الفلاسفة الشعراء لفكرة الجبر والاختيار ، والحكمة من الخلق ، ومصير الوجود ، وقد عبرت قصيدة ابن الشبل :

بربك أيها الفـــلك المـدار　　　　أقصد ذا المسير أم اضطرار

عن تلك الأفكار وغيرها ، كما تعرضوا لموضوع النفس ، وطبيعة العلاقة بينها وبين الجسد ، ومصيرها بعد فنائه بالموت ، كما فى قصيدة النفس لابن سينا .

هبطت إليك من المحل الأرفـع　　　　ورقـاء ذات تـــعزز وتمنع

وكما فى أبيات السهروردى التى أولها :

خلعت هياكلها بجرعاء الحمى　　　　وصبت لمغناها القديم تشوقًا

وكما فى قول الرازى :

نهاية إقدام العـقول عـــقال　　　　وأكثر سعى العالمين ضلال

وأرواحنا فى عقلة من جسومنا　　　　وحاصل دنيانا أذى ووبال

وقوله :

أرواحنا ليس تدرى أين مذهبها　　　　وفى التراب توارى هذه الجثث

وعبر بعضهم عن معان صوفية تدل على التطلع إلى معرفة الله - عز وجل - والشوق إلى حضرته ، وظهرت فى هذا المجال أفكار الحلول والاتحاد ، والغيبة والفناء ، وغيرها من أفكار التصوف الفلسفى .

كما ظهرت فى شعرهم الفلسفى أفكار علمية ترجع إلى الطب والهندسة

والفلك وغيرها من العلوم التى اشتغلوا بها ، كما هو الحال عند ابن سينا ، وابن التلميذ ، والبديع الإصطرلابى ، وغيرهم .

وهذه الأفكار الفلسفية والعلمية دقيقة وجافة بطبيعتها لكنها فى شعر الفلاسفة تخف، وتبرأ من كثير من غموضها وجفافها، بفضل براعة التعبير الشعرى الذى ألبسها ثوبًا جميلا من الألفاظ والصور .

٢- فى الألفاظ والأساليب

يلاحظ فى شعر الفلاسفة شيوع الألفاظ ذات العلاقة بقضايا الفلسفة والفكر مثل (الله – الإله – النور – الجوهر – العرض – النفس – القصد – الاختيار – الاضطرار – الروح – البدن – العقل – الدهر – الموت) وهذه الألفاظ تمثل قاموس الشعر الفلسفى ، وفيما عدا الألفاظ التى تعد مصطلحات فلسفية ، فإن الألفاظ التى استخدمها الفلاسفة فى شعرهم لاتجنح إلى الغموض – غالبا – وفى أكثر الأحيان وفق الفلاسفة الشعراء فى اختيار الألفاظ ذات الإيحاء الشعرى ، بيد أن الصنعة تبدو واضحة فى الصياغة عند بعضهم حتى تبلغ حد التكلف ، ومن دلائل هذه الصنعة الإكثار من الجناس والطباق كما فى قول البديع الإصطرلابى :

مستيقظ فإذا استضيـ	ـف به يصير من النيام
وتراه فى عدد الطغا	م إذا رأى مضغ الطعام
تبدو مصائبه العظا	م أوان تجريد العظام

فقد جانس بين الطغام والطعام والعظام والعظام وطابق بين مستيقظ

ونيام

وكما فى قول مهذب الدين بن هبل :

لقد سبتنى غداة الخيف غـانية   قد حازت الحسن فى دل وصـبا

قامت تميس كخوط البان غـازلـة   مع الأصائل ريحى شمال وصبا

يكاد من دقة خـــصر تدل بـه   يشكو إلى ردفها من ثقله وصبا

لو لم يكن أقحو ان الثغر مبسمها   ماهام قلبى بحبها هوى وصـبا

فالقافية فى الأبيات (وصبا) تختلف فى المعنى من بيت إلى بيت مع اتحادها فى الأحرف .

وكما فى قول الحكيم الجليانى :

أتاح له نجواه بعـض شفائه   فـباح بما أخفاه من برحائه

متى لمحت عين العليل طـبيبه   فـــلابد أن يومى إليه بدائه

وكم فى الهوى من مكتس برد   وجده وملتحف من دائه بردائه

فقد جانس بين أتاح وباح ، وطابق بين شفاء وعليل .

وبين الشفاء والعليل والطبيب والداء مناسبة وبين مكتس وملتحف مناسبة أيضًا

ومن الظواهر الأسلوبية التى تلفت الانتباه فى شعر الفلاسفة شيوع أسلوب الاستفهام - خاصة - فى الشعر الفلسفى الذى تناول القضايا الفكرية ، فابن سينا تساءل فى قصيدة النفس قائلا :

فلأى شئ أهبطت من شاهق   سام إلى قفر الحضيض الأوضع

كما بنى ابن الشبل قصيدته الرائية

بـــربك أيها الـــفلك المدار أقصد ذا المســير أم اضطرار

من أولها إلى آخرها على التساؤل معبراً عن حيرته إزاء مظاهر الوجود وأحداث الحياة ، مفتشاً عن الحكمة واللباب وحقائق الأشياء ، ولم يشع أسلوب الاستفهام فى الأغراض الأخرى كالغزل والمديح والوصف إذ لكل غرض ماينا سبه من الأساليب .

وشيوع الاستفهام فى الشعر الفلسفى أمر طبيعى .

يقول الدكتور زكريا إبراهيم فى تصدير كتابه (مشكلة الإنسان) : «والفليسوف هو إنسان المشكلة ، رجل التساؤل ، خالق علامة الاستفهام ، إنه المخلوق الذى لايزال أبداً سالكاً ، سائراً ، حائراً ، عابراً ، ناظراً ، مسافراً ، إنه المخلوق الذى يجد دائماً فى إثر الحقيقة ، ولكنه يعلم فى الوقت نفسه أن التأمل الفلسفى مهمة لا يمكن أن تنتهى ، فإن فى توقفها إنكاراً لذاتها » .

٣- فى العاطفة

العاطفة فى الشعر هى روحه التى بدونها يفقد تأثيره فى نفس المتلقى، وتقوى العاطفة فى الشعر وتضعف حسب معايشة الشاعر لتجربته وصدقه فى التعبير عنها ، وكلما كانت التجربة الشعرية حميمة الصلة بضمير الشاعر اقتربت القصيدة المعبرة عنها من درجة النضج ، وكانت أقدر على التأثير .

وقد حفل شعر الفلاسفة بالعواطف الجياشة الصادقة ، حتى ليسهل

على القارئ التعرف على ملامحها فى كثير من المواضع ، فعندما يقول ابن الشبل فى رثاء أخيه :

مادهانا من يوم أحمد إلا	ظلمات ولا استبان ضياء
ياأخى عاد بعدك الماء سما	وسمومًا ذاك النسيم الرخاء
والدموع الغزار عادت من	الأنفاس نارًا تثيرها الصعداء
كيف أرجو شفاء ومابى	دون سكناى فى ثراك شفاء
إن محاسنك التراب فما للـ	ـدمع يومًا من صحن خدى انمحاء
أو تبن لم يبن قديم وداد	أو تمت لم يمت عليك الثناء

يلمس المتذوق عاطفة صادقة دافقة وراء كل كلمة ، ومعروف أن العاطفة الدافعة إلى شعر الرثاء والكامنة فيه هى عاطفة الحزن ، وهذا الحزن ينضح من الأبيات السابقة ، حتى إن حياة الشاعر - كما يصورها - تبدلت من نور إلى ظلام ، وتحول نعيمها إلى بؤس ، فالماء عاد بعد فقد أخيه سما ، والنسيم صار سمومًا ، والدموع التى يرجى أن تخفف الحزن وتريح من الألم عادت نارًا تلهبها الأنفاس والزفرات وتزيدها اشتعالا .

وهذا الحزن الشديد ملازم للشاعر ، ولا يتصور أن يزايله إلا بعد أن يدفن إلى جوار أخيه الذى مات ، وهذه العاطفة القوية الصادقة ناتجة عن الود القديم المركوز فى طبيعة المرء تجاه أخيه .

وإذا كان المديح الصادق ناتجًا عن عاطفة الحب والتقدير لشخص أعجب الشاعر بفعاله وخصاله، فإن هذه العاطفة تبدو فيما روى للفلاسفة من شعر المديح ، خاصة فيما قاله الحكيم الجليانى مادحًا الملك الناصر

صلاح الدين ، الذى أعجب الشاعر بشخصيته الفذة، وفعاله الصالحة، وخصاله الكريمة، فرأى أن مدحه فرض ، وأن مدح غيره محرم ، ولا يكون ذلك إلا عندما تصل عاطفة الحب والإكبار إلى أعلى الدرجات .

يقول الحكيم الجلياني :

ففرضًا أرى مدحى له متجنبا — مديح سواه كاجتناب المحرم

وليس اجتداء بل تحية شاكر — وتقـييد آثار وتأبيد عازم

وفى المديح الصادق تملأ شخصية الممدوح جوانب القصيدة، كما ملكت على الشاعر عواطفه، وملأت منه أقطار نفسه ، ولهذا نجد الحكيم الجلياني يفصل القول فى ذكر أوصاف ممدوحه وفعاله وآثاره فى مثل قوله :

فديتك من معـل لديـنك مبتن — وأفـديك من مبل لضدك هادم

فأنت الذى أيقظت حزب محمد — جهادًا وهم فى غفلة المتناوم

فحاربت للإيمان لا لضـغائن — ورابـطت للرضوان لا لمغانم

كما يقول فى موضع آخر :

أهوى إليهم صلاح الدين مفترسًا — وهو الغضنفر أعدى ظفره الظفر

وأنـجز اللـه للسلطان موعده — ونـذره فى كفور دينه البـطر

هذا المليك الذى بشرى النبى به — فى فتـنة البغى للإسلام ينتصر

والتمييز بين العواطف الصادقة والزائفة ، والتعرف على درجاتها فى الصدق، يعتمدان على الإحساس والتذوق ، وتلمس ماوراء الكلمات والجمل ، ولا يملك الناقد أو الدارس فى تقييم العاطفة فى الشعر غير هذا المقياس ،

وبه نستطيع الحكم بأن مديح الجلياني لصلاح الدين أقوى عاطفة وأصدق من مديح ابن هندو للصاحب بن عباد في قصيدته التي مطلعها :

لها من ضلوعي أن يشب وقودها ومن عبراتي أن تفض عقودها

وإذا كان تصور وجود الدافع العاطفي وراء شعر الرثاء والمديح والهجاء أمرًا ضروريًا لتعلق هذه الأغراض بعواطف يشترك فيها جميع الناس ، وهي عواطف الحزن والحب والبغض وماشابهها ، فإنه قد يظن أن الشعر الفلسفي الخالص، الذي يعنى فيه أصحابه بالقضايا الفكرية، المتعلقة بالكون والوجود والمصير، لا يصدر عن عاطفة لأنه شعر فكري ذهني لا صلة بينه وبين الإحساس .

وهذا الظن - في الحقيقة - غير صحيح ، إذ العاطفة في هذا اللون من الشعر يمكن ألا تقل في قوتها وصدقها عن العواطف الدافعة إلى شعر المديح والرثاء والهجاء في تجاربه الجيدة .

إن العاطفة التي تدفع إلى الشعر الفلسفي ، والتي يمكن تلمسها في الجيد منه، هي عاطفة الشوق إلى المعرفة والتطلع إلى المجهول ، والرغبة في اكتشاف الحقائق، وإدراك الحكمة من الأحداث، والنفاذ إلى الجوهر واللباب اللذين يستتران خلف ركام من القشور والأعراض .

فهذه العاطفة هي التي دفعت ابن سينا إلى التأمل في حقيقة النفس ، والتطلع إلى معرفتها ، والتساؤل عن أحوالها في مثل قوله :

فلأي شئ أهبطت من شاهق سام إلى قعر الحضيض الأوضع

إن كان أرسلها الإله لحكمة طويت عن الفطن اللبيب الأروع

فهبوطها إن كان ضربة لازب   لتكون سامعة بمالم تسمع

وتعود عالمة بكل خفية   فى العالمين فخرقها لم يرقع

وهى التى قطع الزمان طريقها   حتى لقد غربت بغير المطلع

فكأنها برق تألق بالحمى   ثم انطفا فكأنه لم يلمع

أيمكن أن يكون هذا الشعر خلوًا من العاطفة ؟!

إن عاطفة الشوق إلى المعرفة جعلت الشاعر الفيلسوف يعايش صورة النفس بفكره ووجدانه ، يترفق فى القرب منها ، ويتلطف فى معالجتها ، وتحسس أحوالها ، حتى سمع بكاءها وغناءها ، وأدرك شوقها وحنينها ، وصور إحساسه بها فى قوله :

تبكى إذا ذكرت عهودًا بالحمى

بمدامع تهمى ولما تقطع

وتظل ساجعة على الدمن التى

درست بتكرار الرياح الأربع

إذ عاقها الشرك الكثيف وصدها

قفص عن الأوج الفسيح المربع

حتى إذا قرب المسير إلى الحمى

ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع

سجعت وقد كشف الغطاء فابصرت

ماليس يدرك بالعيون الهجع

وهذه العاطفة ذاتها هى التى دفعت ابن الشبل البغدادى إلى النظر فى ملكوت السماوات والأرض، وتأمل مافيهما من مظاهر وأحداث ، ثم البحث عن الحكمة من الخلق ، وعن مصيره ونهايته ، وقصده ووجهته، فى تجربة شعرية رائعة صهرتها عاطفة جياشة حارة صادقة فى التطلع إلى المعرفة واكتشاف المجهول ، وذلك فى قصيدته :

بربك أيها الـــفلك المـــدار أقصد ذا المسير أم اضطرار

فهذا التوسل بالقسم إلى الفلك وسؤاله، هما الدليل والرائد إلى عالم هذه العاطفة التى دفعت الشاعر إلى تلك القصيدة ، وقد وفق الشاعر فى استهلاله قصيدته بهذا البيت توفيقًا كبيرًا .

وهذه العاطفة أيضًا هى التى تكمن فى الشعر الصوفى الذى عبر فيه الفلاسفة عن شوقهم إلى معرفة الله – عز وجل – وتطلعهم إلى حضرته ، حيث تفيض أنوار التجليات على أوليائه ، فترفع الحجب والأستار ، وتظهر الحقائق والأسرار ، وكلما اقترب الواحد منهم خطوة زاد شوقًا إلى مابعدها، وكلما ارتقى مقامًا اجتهد لبلوغ مقام أرقى ، وهكذا يظل السالكون فى شوق دائب وحنين متصل ، لأن الطريق طويلة ومراحلها كثيرة، ولذاتها مغرية ، وأفضل مايوضح ذلك قصيدة السهروردى التى يقول فى أولها :

أبــدًا تحـــن إليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح

وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم وإلـى لذيذ وصالكم ترتاح

وارحمتا للعاشقين تكـــلفوا ستر المحبة والهوى فضاح

والعاطفة فى مثل هذا الشعر من أرقى العواطف وأشرفها ، بل هى

أرقاها وأشرفها على الإطلاق .

٤- فى الخيال والتصوير

الصورة فى الشعر أداة مهمة فى التعبير لا تقل شأنا عن الكلمة والفكرة ، والخيال الرحب الذى يلتقط المناسبة بين الأشياء من أهم خصائص الشعراء ، وطائفة الفلاسفة الذين عنى بهم هذا البحث أوتوا القدرة على التخيل مع تمكنهم من اللغة وتراكيبها ، ولذا عدوا من الشعراء .

ولقد حفل شعرهم بألوان من التصوير فى شتى أغراض القول ، وهم غير متساوين - بطبيعة الحال - فى القدرة على التخيل وإبداع الصور الشعرية الطريفة .

ويبدو ابن سينا وابن هندو فى مقدمة شعراء إيران ، كما يأتى ابن الشبل والعنترى فى مقدمة العراقيين ، والحكيم الجليانى فى مقدمة الشاميين ، وعلى بن النضر فى مقدمة المصريين ، ويحسن الوقوف عند بعض الصور التى وردت فى أشعار الفلاسفة دالة على موهبتهم الأدبية .

فمن الصور الرائعة التى وردت فى شعر ابن سينا قوله :

ياربع نكرك الأحداث والقدم	فصار عينك كالآثار تتهم
كأنما رسمك السر الذى لهم	عندى ونؤيك صبرى الدارس الهدم
كأنما سفعة الأثفى باقية	بين الرياض قطاجونية جثم
أو حسرة بقيت فى القلب مظلمة	عن حاجة ماقضوها إذ هم أمم

فقد شبه الربع بالآثار ، ورسمه الباقى بسرحبه المقيم فى قلبه ، لم

تمحه الأيام والسنون ، كما شبه النؤى المتهدم بصبره النافد ، وسفعة الأثفى بالقطاة وبالحسرة التى تسكن قلب المحب بعد فوات ماكان يرجوه من محبوبه وهو قريب .

وبعض هذه التشبيهات تقليدى ، وهم ماورد فى البيت الأول ، وبعضها طريف كتشبيه الرسم بالسر ، والنؤى بالصبر ، وسفعة الأثفى بحسرة القلب، وهذا كله من باب تشبيه المحسوس بالمعنوى ، وهى تشبيهات مقلوبة، مبنية على ادعاء الشاعر أن وجه الشبه فى المعنوى أشد وضوحاً منه فى الحسى، فابن سينا أراد بهذه التشبيهات أن يقول إن سر الحب فى صدره أبقى وأوضح من بقاء رسم االدار ، وصبره أشدتهدما من تهدم النؤى ، وسواد الحسرة على بعد حبيبه أشد من سواد الأثافى المحترقة ، وذلك حسب احساسه هو وتخيله .

ومن الصور المعبرة عند ابن سينا أيضاً ماجاء فى قصيدته (النفس) إذ صورها فى صورة كلية ، واضحة الملامح والصفات ، يستطيع القارئ التعرف على النفس من خلالها ، وهى المحجوبة عن كل مقلة عارف !

كما صورها فى موضع آخر مشبها إياها بالزجاجة ، ومشبها العلم الذى يهذبها بالسراج الذى يضيئ تلك الزجاجة ، والحكمة التى يلهمها الله إياها بالزيت الذى يمد السراج بطاقة الإضاءة ، فقال :

إنما النفس كالزجاجة والعلم　　　سراج وحكمة الله زيت

فإذا أشرقت فإنك حى　　　وإذا أظلمت فإنك ميت

ومن الصور التخييلية البارعة فى شعر الفلاسفة ماجاء فى قصيدة ابن هندو فى وصف المعركة التى دارت بين جيش الصاحب بن عباد ممدوحه

وأعدائه ، ومطلع القصيدة :

لها من ضلوعى أن يشب وقودها ومن عبراتى أن تفض عقودها

وقد وقفنا عند هذه الصور فى الحديث عن ابن هندو وشعره .

ومن صوره الجميلة أيضًا على الرغم من سذاجتها قوله :

أيـــا بــــدرًا بــــلا كلف بــــه دون الـــورى كـلفى

أبـــن لـــى در ثــغرك ما بهـــاء الـــدر فـــى الصدف

ومن طريف صوره تشبيهه كثرة ارتحاله وعدم استقراره بالفكرة القلقة فى عقل الموسوس لاتقر ولا تهدأ ، وذلك فى قوله :

كـــأننى فــكرة الموسوس لا تبـــقى لدى لحظة على حال

ومن الصور المعبرة فى شعر الحكيم الجليانى قوله فى مدح صلاح الدين :

وأرجفت روما إذ خرقت فرنجة فكانوا غثاء فى سيول الهزائم

وقوله فى مديحه أيضًا :

فتى ذهنه يرمى بشهب خواطر تشق دجون المغمضات العواتم

وصور على بن النضر ماتفعله الضرورة بالناس تصويرًا مؤثرًا فقال :

ياقاتل الله الضرورة حـــالة أى المســالك بالفتى لم تسلك

كم بات مشكو إليه تحيـــفت حلقاته قرعا براحة ممـــسك

وفم على قدم رمت ، ونـــواظر كحلت محاجرها بموطئ سنبك

**ومسربل بالصبر والتقوى دعت		فأجابها فى معرض المتنسك**

**ظلت تصرفه كتصريف العصا		رأس البعير لمبرك عن مـــبرك**

وهكذا حلق الفلاسفة الشعراء بخيالهم فى آفاق التصوير الأدبى ، معبرين عن أفكارهم ومشاعرهم وتجاربهم فى الحياة .

ثانياً : القيمة الأدبية لشعر الفلاسفة

تتمثل القيمة الأدبية لشعر الفلاسفة فى أنه تعبير إبداعى لطائفة متميزة من الناس وهبهم الله رجحان العقل وسعة العلم وجمال التعبير ، وكانوا رواداً فى مجتمعاتهم .

وهذا التعبير يحمل أفكارهم ، ويدل على سيرهم فى الحياة وتصوراتهم للكون ، كما أنه يحمل روح العصر الذى كانوا يعيشونه بكل ماكان يموج فيه من أفكار وفلسفات وعقائد وحضارات .

ولقد كانت الحقبة التى ظهر فيها هؤلاء النفر من الفلاسفة الشعراء ذات طابع خاص وأهمية مميزة ، فالقرنان الخامس والسادس هما آخر العصور الزاهرة للدولة الإسلامية العربية الكبرى سياسياً وثقافياً وأدبياً ، فقد سقطت بغداد عاصمة العباسيين فى أيدى التتار فى منتصف القرن السابع، ليبدأ عصر جديد وتاريخ مختلف، وقد تكون الصورة التى رسمتها أشعار الفلاسفة – فى إطارها التاريخى – لأنماط الحياة وألوان الفكر ، ذات دلالة على المصير الذى كانت تندفع إليه الدولة العربية فى ذلك العصر .

كما تتمثل قيمة هذا الشعر أيضاً فى أنه عبر عن أفكار فلسفية كانت فى ذلك العصر وافدة جديدة ، ولم يعجز الشعر العربى فى إطاره الملتزم بالوزن والقافية عن استيعاب تلك الأفكار ، كما اتسع هذا الإطار لحمل أفكار علمية محضة فى الطب والهندسة والفلك وغيرها .

وهذا – فى اعتقادى – يبطل قول من يزعمون أن اللغة العربية لاتقدر على مواكبة العصر الحديث ومااستجد فيه من علوم ، وأن الشعر الملتزم

بالوزن والقافية لا يصلح الآن للتعبير عن المذاهب الفلسفية والاجتماعية والقضايا الفكرية التى شاعت فى هذا العصر .

إذا صح هذا - وأرجو أن يكون صحيحًا - ثبت أن لشعر الفلاسفة قيمة تاريخية وأدبية تجعله جديرًا بما بذل من جهد لجمعه ودراسته فى هذا البحث .

الخاتمة

هذه هى صورة شعر الفلاسفة الذين ظهروا فى المشرق العربى فى القرنين الخامس والسادس الهجريين ، قدمتها كما رأيتها راجيًا أن تكون إسهامًا مفيدًا فى دراسة الأدب العربى ، وأعتقد أن هذا الكتاب جديد فى موضوعه ، فلم يهتم أحد من الدارسين بجمع أشعار هذه الطائفة وإخضاعها للدرس من أجل التعرف على سماتها وتقدير قيمتها وقد مر البحث فى سبيل هذه الغاية بعدة مراحل تحققت من خلالها نتائج أهمها :

١- تحقيق الصلة بين الشعر والفلسفة وإثباتها .

٢- إلقاء الضوء على النشاط الفكرى والأدبى الذى ماجت به البيئات العربية المختلفة فى العصر العباسى ، وبيان أثر ذلك النشاط فى الشعر ، مما أدى إلى وجود فلاسفة شعراء .

٣- الترجمة الواضحة لعدد من الفلاسفة الشعراء بلغوا خمسة عشر ، منهم كثير من المغمورين ، وبعضهم اشتهر بالفلسفة ، وقل من يعرف أنه شاعر .

٤- التعرف على شعر هؤلاء الفلاسفة وجمعه من المصادر المختلفة .

٥- دراسة شعر الفلاسفة ورصد سماته فى أفكاره ومعانيه وأساليبه وصوره.

٦- بيان القيمة الأدبية لهذا الشعر الذى لم يتنبه الدارسون لأهميته على الرغم من احتفال أسلافنا به ، وتدوينهم إياه فى كتب التراجم والطبقات .

وبعد ... فهذا جهدى أقدمه للقراء راجيًا أن يكون نافعًا ، غير مدع العصمة من الخطأ والغفلة سائلا الله - عز وجل - أن لا يؤاخذنا بما نسينا أو أخطأنا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وبالله التوفيق

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .

٢- أدب الحروب الصليبية - د / عبد اللطيف حمزة - دار الفكرى العربى ١٩٨٤

٣- أدبنا العربى فى عصر الولاة -د/ محمد كامل حسين - دار الفكرى العربى

٤-الأدب فى العصر الأيوبى - د/ محمد زغلول سلام - دار المعارف ١٩٨٣

٥- ابن سينا بين الدين والفلسفة - د/ حمودة غرابه - مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ١٩٧٢ .

٦- أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى - أنيس المقدسى - دار العلم للملايين بيروت ١٩٨١ .

٧- بين الفلسفة والأدب - على أدهم - دار المعارف .

٨- البيان والتبيين - للجاحظ . تحقيق هارون - الخانجى .

٩- تاريخ حكماء الإسلام - للقفطى - مكتبة المثنى ببغداد والخانجى بمصر

١٠- تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام - د/ محمد على أبو ريان - دار النهضة - بيروت .

١١- الحياة الأدبية فى الشام في القرن الخامس الهجرى - د/ عبد الجليل حسن عبد المهدى -مكتبة الأقصى - عمان ١٣٩٧ هـ -١٩٧٧م .

١٢-شرح ديوان المتنبى - عبد الرحمن البرقوقى - دار الكتاب العربى - بيروت .

١٣- الشعر والشعراء - لابن قتيبة - دار الكتب العلمية - بيروت .

١٤- ضحى الإسلام - أحمد أمين - دار الكتاب العربى - بيروت .

١٥- ظهر الإسلام - أحمد أمين - دار الكتاب العربى - بيروت .

١٦- عصر الدول والأمارات (الجزيرة العربية - العراق - إيران) - د/شوقى ضيف - دار المعارف .

١٧- العصر العباسى الأول - د/ شوقى ضيف - دار المعارف .

١٨- العصر العباسي الثانى - د/ شوقى ضيف - دار المعارف .

١٩- عيون الأنباء فى طبقات الأطباء - لابن أبى أصيبعة - الوهبية ١٨٨٢ .

٢٠- عيون الأنباء فى طبقات الأطباء - لابن أبى أصيبعة - دار الفكر - بيروت .

٢١- فوات الوفيات - محمد بن شاكر - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

٢٢- لسان العرب - لابن منظور .

٢٣- مشكلة الإنسان - د. زكريا إبراهيم - مكتبة مصر ١٩٥٩ .

٢٤- مطالعات فى الكتب والحياة - عباس محمود العقاد - دار الكتاب العربى - بيروت١٩٦٦ .

٢٥- معجم الأدباء - لياقوت .

٢٦- مقدمة ابن خلدون - لابن خلدون - المطبعة الأزهرية .

٢٧- مقدمة فى الفلسفة الإسلامية - عمر محمد التومى الشيبانى - الدار العربية للكتاب - ليبيا .

٢٨- نوادر المخطوطات (الرسالة المصرية لأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى) تحقيق هارون - مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبى ١٩٧٢ .

٢٩- وفيات الأعيان - لابن خلكان .

٣٠- يتيمة الدهر - للثعالبى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

الفهرس

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

الفصل السادس :

الفصل السابع :